مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٧)، العدد (٣)، ص ص ١١١٣-١٢٠١، (رجب ١٤٣٥هـ/ أبريل ٢٠١٤)

المقاومة الإسلامية في مراحلها الأولى ضد الاستعمار البرتغالي في شرق إفريقية (١٠٣٤ -١١٤٣هـ / ١٦٢٤- ١٧٣٠م)

د. فاطمة بنت محمد الفريحي
أستاذ التاريخ المساعد بقسم التاريخ
جامعة القصيم

ملخص البحث. شهدت بحار الشرق الإسلامي أوائل القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي طلائع الاستعمار الأوربي في العصر الحديث المتمثل بالغزو البرتغالي الذي تعرضت له السواحل الشرقية الإفريقية ، وهو امتداد لحروب صليبية ، وفي هذا البحث نعمل على إبراز الدوافع الدينية والاقتصادية للاستعمار البرتغالي باعتبارهما الدافعين الرئيسيين لهذا الاستعمار ، ويعزى الاهتمام بساحل شرق إفريقية لسببين هما الأول: القضاء على الوجود العربي الإسلامي ، والسيطرة على تجارته، أما الثاني: فهو تهيئة ساحل شرق إفريقية ليكون بمثابة محطة إمداد وتموين للسفن البرتغالية من وإلى الهند بمعنى قاعدة توفر الأمن والحماية لهذا الخط الملاحي ،كما أحاول إبراز حركة الجهاد التي قام بها اليعاربة العمانيون الذي أدى إلى طرد البرتغاليين من سواحل شرق إفريقية ، الذي يعتبر بحق نقطة تحول في تاريخ الإسلام في تلك المناطق وأسهم في تغلغل الإسلام وانتشاره في أواسط القارة الإفريقية ، بل أصبحت ساحل شرق إفريقية مركز إشعاع حضاري إسلامي لنقل الحضارة الإسلامية إلى مجاهل القارة الإفريقية.

مقدمة

استطاعت البرتغال أن تخرج من عزلتها وتتغلب على صغر مساحتها وبناء أسطولها البحري الذي يعد بداية لبناء إمبراطورية بحرية، حيث امتد النفوذ البرتغالي على معظم سواحل غرب إفريقية، في أواخر القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي – ونظراً للنجاح الذي حققوه في غرب إفريقية، فقد بدأت طلائع الغزو البرتغالي اهتمامهم بالتوجه إلى الشرق والهند.

إذن ما هي دوافع البرتغاليين إلى القيام بحركة الالتفاف تلك والتوجه إلى الشرق؟ وسنركز على الدافعين الديني والاقتصادي، على اعتبار أن هذين الهدفين هما اللذان سعى البرتغاليون لتحقيقهما، بل كرسوا جهودهم لخدمتهما.

التمهيد

دوافع الوجود البرتغالي

لقد جسد المؤرخون البرتغاليون المعاصرون للغزو البرتغالي الروح الصليبية لدى البرتغاليين، وأهدافهم التي يسعون إلى تحقيقها فها هو ذا (أنطونيو بوكارو Bokaro, A.) يقول: "عندما نجح البرتغاليون في نهاية المطاف في إيجاد طريق بحري إلى الهند، وأقاموا حصونهم ومحطاتهم التجارية، لم يكن لديهم أي شك في أنهم يقومون بشيء ذي أهمية كبيرة بالنسبة للعالم... ويستطرد قائلاً: "فقد كانوا ينظرون لإنجازاتهم على أنها عكسٌ للفتوحات الإسلامية في القرنين السابع والثامن، فالعرب في انطلاقهم نحو الغرب وتوسعهم سيطروا على شبه جزيرة أيبيريا، وهاهم أولاء البرتغاليون الآن يهاجمون شواطئ جزيرة العرب نفسها، ويهددون مدينة مكة المقدسة، ويخضعون الأمراء المسلمين لهم"(١)، والواقع أن المؤرخين البرتغاليين أكدوا الأهمية القصوى للعامل الديني، بل جعلوا منه المحرك الرئيس لأحداث الكشوف الجغرافية.

---

(١) Decado XIII De Historis De India, vol, I, (Lisbon, 1876) p.321. ;

كانت الإنعامات البابوية الكاثوليكية على ملوك البرتغال تؤجج تلك الروح الصليبية المتوقدة في نفوسهم، ومكن هذا الاهتمام البابوي البرتغاليين من موارد كبرى كان لها دورها في حروبهم مع المسلمين، ومكنت البابوية ملوك البرتغال من رفع وارداتهم المالية، فلقد طلب الملك البرتغالي (إدوارد Adoard 837 – 842هـ/ ١٤٣٣ – ١٤٣٨م) من البابا اعتبار الحروب الصليبية ضد المسلمين حروباً مشروعة(٢)، وأصدر البابا (أوجينوس الرابع (١٤٣١ – ١٤٤٧م) قراراً مؤرخاً في ديسمبر عام ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م ضمن فيه الغفران لمن حج إلى البلدان الإسلامية التي استولى عليها البرتغاليون، ولمن تصدق بماله لتغطية المصاريف العسكرية(٣).

كما مكنت البابوية ملوك البرتغال من التصرف – دائماً للأغراض الصليبية في واردات الجماعات العسكرية الأربع (٤) التي لم يكن لهم فيها

نقلاً عن:

بكنجهام، س. بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج٦، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص١٨٦م.

(٢) أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور، ١٤٨١ – ١٥٤١م، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٣) المرجع نفسه، ص١٥٠.

(٤) كانت هذه الجماعات العسكرية الأربع قد تكونت في فترات مختلفة للدفاع عن البرتغال، وصد أي هجوم إسلامي عليه، وكانت تستفيد من إقطاعات شاسعة تضمن لها أعداد هائلة من الفرسان، وهذه الجماعات هي:

أ) جماعة المسيح Ordre Christ، أقدمها وأقواها التي أسست عام ٧١٨هـ / ١٣١٨م، التي أصبحت وقت بداية= الكشوف الجغرافية تحت رئاسة الأمير هنري الملاح.

ب) جماعة (أفيزا Avis) التي تعززت بعد وصول أسرة (أفيزا) إلى حكم البرتغال بعد ثورة عام ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م.

ج) جماعة StjacgueL'Epee.

د) جماعة St Jean ou de L'Hopital.

لمزيد من التفصيل عن تلك الجماعات انظر:

حق، الأمر الذي مكنهم من جباية أموال طائلة؛ نظراً لغناها وكثرة إقطاعاتها، كما ضمنت البابوية كذلك للبرتغاليين مساهمة كل البلاد المسيحية في مجهودهم العسكري. أيضاً أصدر البابا قراراً في يناير عام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٣م تم بمقتضاه تحديد وسائل تموين الحروب الصليبية البرتغالية، حيث أصبح بموجبه لملك البرتغال حق التصرف في عشر واردات كنائس بلاده، وتنازل له البابا عن خمس واردات دولته، وأرغم (الكردينالات) على التنازل عن عشر واردات مناطقهم(٥). ولا شك أن توفر الأموال والامتيازات سيؤدى إلى مزيد من الحروب وإظهار النية والعزم على الاستمرار في محاربة المسلمين وغزو بلدانهم.

وفي عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م أصدر البابا قراراً تم بمقتضاه تخصيص عشر واردات كنائس البلاد المسيحية لمحاربة المسلمين، على أن يعود النصف للبرتغال، وأن تخصص النصف الثاني لمحاربة العثمانيين، ولكن كل شيء عاد في نهاية الأمر للبرتغاليين وذلك لإخفاق البابا في تجهيز حملة ضد العثمانيين(٦).

لقد التقت مصالح البابوية والبرتغال، حيث كان هذا البلد الصغير سباقاً إلى إعلان الحروب على المسلمين في فترة كثرت فيها مخاوف البابوية من التقدم العثماني في حوض البحر المتوسط ووسط أوروبا بعد فتح (القسطنطينية) وفي وقت كان البابا يجد صعوبة في جمع كلمة الدول المسيحية ضد المسلمين، لذا فقد أعطى البرتغاليين نوعاً من الاطمئنان للبابوية من الناحية الغربية عندما قاموا بحملاتهم الصليبية ضد المسلمين في الأندلس والمغرب، كما أن لجوء ملوك البرتغال للبابوية أفادهم كثيراً حيث وفر لهم الدعم المادي اللازم والغطاء الديني (٧).

أحمد بوشرب، المرجع السابق، ص١٦٦.

(٥) المرجع نفسه، ص١٥٠.

(٦) أحمد بوشرب، المرجع السابق، ص١٥١؛ إبراهيم شحاته حسن، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٩.

(٧) قام الراهب البلجيكي (ويتيWitte, ch. M) بنشر ودراسة عدد من القرارات البابوية التي صدرت لدعم البرتغال مادياً ومعنوياً لحثهم على محاربة المسلمين، وبين الدوافع التي أدت بالبابوية إلى دعم البرتغال، وجاء في

إن الرغبة في استكشاف أراض جديدة جنوباً على طول الساحل الغربي لإفريقية لأهداف تتعلق بالتجارة والغزو ونشر النصرانية، وكذلك الرغبة في اقتباس أسلوب العدو ووسائله في نشر الإسلام ومعرفة مدى هذا الانتشار، هي مجموعة آمال تعلق بها فكر الأمير هنري الملاح ودعمتها أسطورة غامضة ذكرت أن هناك امبراطورية مسيحية تقع في وسط إفريقية أو آسيا تسيطر على أراض واسعة، يمكن التحالف معها حتى يتم تطويق بلاد الإسلام والوصول إلى منتوجات الشرق التي تدر على المسلمين أرباحاً طائلة(٨). بذلك تكون الخطط البرتغالية تشمل معظم القارة الأفريقية.

أما محاولتهم الوصول إلى الإمبراطورية المسيحية أو مملكة القس (يوحنا) كما جاء في بعض المصادر، فإذا كان المقصود بها الحبشة وهو الراجح، فقد كان لهم ما أرادوا وذلك عندما وصلت أساطيلهم إلى المحيط الهندي، ونستطيع أن نقف على حجم وأبعاد تلك الاتصالات من خلال الرسالة التي بعث بها (الفونسو دي البوكيرك Avonso De Alboquerqu) (٩)

مقدمتها خوف البابوية من التوسع العثماني في أوربا. وذلك في المجلة الدينية البلجيكية (Revued' historieEcclesiastgue) انظر:

Les BullesPontificalesetIexpansionPortugaiseAuxv. Siecle, XLIII, (Braxl, 1953) , p. 687.

(٨) عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م، ص١٦٩؛ جمال زكريا قاسم، الاستعمار البرتغالي وأثره على العلاقات العربية الإفريقية، بحث في كتاب (العلاقات العربية الأفريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية) القاهرة ١٩٧٧م، ص٥٩.

(٩) البوكيرك: هو المؤسس الحقيقي للإمبراطورية البرتغالية في الشرق، قدم أول مرة إلى هناك مع أحدى الحملات التي جاءت عام ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، وأثناء إقامته في الهند توصل إلى نتيجة فحواها أنه لا يمكن للبرتغاليين فرض سلطتهم وهيمنتهم على تلك المناطق وتحقيق سيادتهم البحرية إلا باحتلال الموانئ التجارية على طول الطريق البحري من رأس الرجاء الصالح والهند وتحصينها. وقد عاد إلى البرتغال يحمل معه هذا التصور الذي عرضه على الملك البرتغالي الذي وافق عليه إضافة إلى سد منافذ التجارة الإسلامية في البحر الأحمر والخليج العربي، ثم عاد إلى الشرق عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م يحمل تفويضاً سرياً بتحقيق تلك الأهداف، وقد بدأ بتنفيذ ذلك عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م فاحتل الساحل العماني وجزيرة هرمز، ثم تولى منصب نائب الملك بالهند

نائب الملك بالهند في ١٥١٢/١٢/١٦ إلى ملك البرتغال يطلعه فيها على الأوضاع في الهند، ويخبره بأن الاتصالات جارية مع الحبشة بشأن توحيد الجهود للقيام بعمل مشترك للسيطرة على البحر الأحمر والهجوم على مدينة (مكة) وتخريبها، وبأنه استقبل مبعوث الحبشة وتباحث معه في هذا الشأن، كما يذكر بأنه ليس هناك عقبات تذكر في سبيل الوصول إلى (مكة) لا سيما وأنها ضعيفة وقليلة المحاربين (على حد قوله)، ويعول في رسالته على أهمية مساندة الحبشة له في تنفيذ مخططه (١٠).

والواقع أن الاتصالات مع الحبشة على هذا النحو قد شجعت البرتغاليين على محاولة تنفيذ مخططاتهم في البحر الأحمر. ففي رسالة أخرى من (البوكيرك) إلى الملك البرتغالي في ١٥١٣/١١/٣٠م يخبره فيها بعزمه على الالتحاق بالبحر الأحمر، والهجوم على ميناء (السويس) لتدمير السفن التي يذكر أنها تتجمع هناك(١١). وإذا كان (البوكيرك) قد أخفق بالتعمق في البحر الأحمر أو الوصول إلى (السويس) فقد نجح بالهجوم على (زيلع) في إطار مساندته للحبشة.

ولذا فقد تعهد البرتغاليون بدعم الحبشة ضد المسلمين والهجوم على (زيلع)(١٢) والقضاء على المسلمين المتمركزين فيها، وقد يكون هجوم

عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م خلفاً لفرنسسكوداميدا، ثم بدأ بمهاجمة البحر الأحمر، وبذلك تكون البرتغال قد قذفت بأعتى رجالها تعصباً ضد الإسلام. والجدير بالذكر أن البوكيرك قد عمل منذ كان صغيراً على محاربة البلاد الإسلامية، وذلك باشتراكه في الحملات البرتغالية على السواحل المغربية، وقد توفي في (جوا) عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م. انظر:

Sousa, F., The Portuguese Asia or the History of the Discovery and conquest of Indi by the Portuguese, translated into English by Cap John Stevens, vol. I, (London, 1695 – 1894) . p. 139 ;

آرنولد ولسون، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة بعمان، الطبعة الثانية، مسقط ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٦٤ – ٦٥.

(١٠) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد العاشر، السنة الخامسة، البحرين، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص١٦٠.

(١١) المصدر نفسه، ص١٦٧.

(١٢) زيلع: تقع على الساحل الغربي لباب المندب، وقد كانت إبان الغزو البرتغالي تابعة لإحدى إمارات الطراز

القائد البرتغالي ونائب الملك بالهند (لوبوسوا ريز LopoSoirz) على ميناء (زيلع) وإحراقه عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م يدخل ضمن الاتفاق بين الطرفين، وكان (سواريز) قد حاول الهجوم على ميناء (جدة) عدة مرات ولكن الرياح العاتية لم تمكنه من بلوغ هدفه (١٣).

ونختتم حديثنا عن الدوافع الدينية للغزو البرتغالي بالرسالة التي بعث بها الملك البرتغالي (عما نويل الأول) إلى أسقف (برافا) في ١٥٠٨/٨/١٦م التي بشره فيها بالانتصارات الهائلة التي حققها البرتغاليون في ساحل شرق إفريقية، ويخبره بنتائج هذا النجاح المبكر الذي سيؤدي حتماً (على حد قول الملك) إلى حرمان التجار العرب من أرباح الهند والشرق الأقصى التي تساعدهم على حربنا، كما ذكر له في تلك الرسالة أيضاً بالضربة التي ستواجه المسلمين نتيجة هذا الانتصار وهذا النجاح، الذي لابد وأن يؤدي إلى انتصار كبير على الإسلام(١٤). ورغم أن هذه الرسالة تتعرض لعمليات الربح والتجارة، إلا أنها تعطي أولوية للعامل الديني، كما تعطي أيضاً للتوسع البرتغالي في الشرق صبغة صليبية محضة.

أما الدوافع الاقتصادية فدفعهم إليها رخص أسعار البضائع الهندية في مصادرها الأصلية لذلك واصلوا جهودهم لاحتكار هذه التجارة وانتزاعها من أيدي المسلمين، فحرصوا على تكثيف حملاتهم البحرية إلى هناك، وعندما عرضوا تلك البضائع في أسواق (لشبونة) بأسعار رخيصة، انجذب التجار الأوربيون إليها، وحقق البرتغاليون أرباحاً طائلة

الإسلامي، وكانت من المراكز الجارية الرئيسة في البحر الأحمر، التي تصل إليها بعض تجارة المحيط الهندي، وكانت تمثل قاعدة جيدة لتموين السفن ولهذا فكر البرتغاليون في احتلالها، حيث إن بناء قلعة برتغالية فيها سوف يمكن البرتغاليين في البحر الأحمر وكذلك الأماكن الإسلامية المقدسة في مكة والمدينة المنورة، انظر:

Sousa, F., Op. cit, vol, I, p. 233 ;

محمد عبداللطيف البحراوي، فتح العثمانيين عدن، دار التراث، ط١، القاهرة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٨٠.

(١٣) ابن الحسين يحيى بن القاسم، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، ج٢، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص٦٤٠؛

Trimingham, S., Islam in Ethiopia, (London, 1952) , p. 84.

(١٤) بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية، ص١٦٣.

نتيجة ذلك(١٥). لذا أصيبت التجارة العربية والإسلامية بأضرار فادحة نتيجة تحويل مسار التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح، ولحقت هذه الأضرار بالمدن الإيطالية أيضاً.

لهذا شرع البرتغاليون حال وصولهم إلى بحار الشرق مبتدئين بالإمارات والمدن الإسلامية في ساحل شرق إفريقية، شرعوا في بناء مراكزهم التجارية هناك وكذلك في الهند، وأضحت السيطرة في المحيط الهندي من نصيبهم، وذلك بالاستيلاء عنوة على معظم موانئها الرئيسة، ودأبوا على مهاجمة السفن العربية التي تعمل بالتجارة هناك ونهب بضائعها وإغراقها وقتل من فيها(١٦).

لقد أخذ البرتغاليون يسعون إلى إغلاق منافذ البحار الهندية في وجه التجارة العربية والإسلامية، وبذلك سيطروا على مراكز المسلمين في الشاطئين الإفريقي والهندي وفي (هرمز) على الخليج العربي، ومنافذ البحر الأحمر، توطئة لتحويل التجارة تدريجياً إلى مراكزهم التجارية، ولذا تكون خطتهم تهدف إلى دفع العرب إلى بحارهم الداخلية وإغلاقها عليهم(١٧).

أما بالنسبة إلى شرق إفريقية، فإفريقية كلها لم تكن في البداية هدفاً برتغالياً من الناحية الاقتصادية يماثل الهند بالرغم من كونها هدفاً دينياً، وإنما بالنسبة إلى البرتغاليين وسيلة للوصول إلى الهند غير أن نظرة البرتغاليين تجاه شرق أفريقية قد تغيرت تغيراً جذرياً بعد وصولهم إليها، إذ رأوا فيه أنه يتيح لهم مزايا اقتصادية ودينية(١٨)، فقد وجدوا فيه إسلاماً

---

(١٥) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٧٦.

(١٦) ابن الديبع أبي الضياء عبد الرحمن بن علي، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ج٢، القاهرة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص٢٠٦.

(١٧) السيد رجب حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص١٤؛ يوسف بن علي الثقفي، دراسات متميزة بين الشرق والغرب على مر العصور، ط١، مكة، ١٤٠٩هـ/١٩٧٩م، ص٦١-٦٢.

(١٨) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ترجمة مختصراً يوسف كمال، ط١، القاهرة،

ذا جذور عميقة، ومجتمعات إسلامية ترفض الولاء لهم فقرروا القضاء عليه، وشرعوا في نشر النصرانية بكل السبل حتى يخلقوا لهم مراكز تدين بالولاء لهم فأنشأوا الكنائس والمراكز التنصيرية، وتدفق المنصرون في ركاب الحملات العسكرية(١٩). وكان هذا بالنسبة لهم مكسباً دينياً.

كما وجد البرتغاليون أيضاً في ساحل شرق إفريقية اقتصاداً مزدهراً وتجارة راقية في مختلف السلع، فاحتكروا تلك التجارة، وفرضوا على السكان عدم التعامل مع غير البرتغاليين، كما استحوذت عليهم فكرة نقل الأفارقة إلى البرتغال والعالم الجديد، التي تطورت فيما بعد بطرق استغلالية بشعة فيما عرف بتجارة الرقيق (٢٠).

وكانوا ينهجون في ذلك شتى الطرق البشعة للحصول على الأسرى، وفي عمليات القنص، وقد أسهمت الحاجة الأوربية الكبيرة إلى اليد العاملة، في تهافت البرتغاليين على مختلف فئاتهم التجارية في الحصول على هذه السلعة، لذا فإن البرتغاليين قد استمروا في التعامل مع هذا الوباء.

لقد عمد البرتغاليون إلى حصار معابر التجارة الإسلامية في البحر الأحمر والخليج، وأبعدوا الأوربيين عن رأس الرجاء الصالح قبل أن يحاولوا الاستفادة من اكتشافاتهم عن طريق المنافسة النافعة، ولم يعتبر البرتغاليون رأس الرجال الصالح اكتشافاً فنياً يمكنهم الاستفادة منه، ،يعطيهم ميزة على منافسيهم، ولكن اعتبروه احتكاراً لا يستند إلا على القوة الغاشمة.

وعلى الرغم من أهمية الدوافع الاقتصادية للكشوف الجغرافية البرتغالية، إلا أن الأمر لم يقتصر على سلب التجارة العربية والإسلامية في شرق إفريقية والمحيط الهندي فحسب، وإنما عملوا على تدمير

١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م، ص٣٢٢؛ بازل دافدسن، إفريقية تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال أحمد، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م. ص٢٦٣.

(١٩) عبد الرزاق عثمان، البرتغاليون في شرق إفريقية، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، البحرين ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٣٤.

(٢٠) جمال قاسم، المرجع السابق، ص٦٦ – ٦٨؛ عبد الرزاق عثمان، المرجع السابق، ص٣٤.

الحضارة العربية والإسلامية عن طريق تجميد أشكال الإنتاج الزراعي والصناعي السائد آنذاك، وعلى الرغم أيضاً من أن الاستغلال والاحتكار التجاري هو الذي طبع الامبراطورية البرتغالية وأعطاها سمتها المميزة، إلا انهم لم يغفلوا الهدف الديني الذي جاءوا من أجله وبخاصة في الشرق، الذي تمثل – كما ذكرنا – بحرمان العرب والمسلمين من المشاركة في تجارة الشرق (٢١)، بالإضافة إلى القسوة التي كانت سمة بارزة للقادة البرتغاليين ضد المدن والسفن العربية، هذا إضافة إلى ما رافق الاستعمار البرتغالي من نشاط تنصيري، تمثل في إنشاء المراكز الدينية والكنائس جنباً إلى جنب مع المراكز التجارية والقلاع العسكرية ومحاولاتهم الدائبة إلى الوصول إلى الأماكن المقدسة.

والواقع أنه مهما حاول بعض المؤرخين التقليل من العامل الديني بحجة غلبة العامل الاقتصادي عليه وانصراف البرتغاليين إلى تحقيق المكاسب التجارية على حساب العامل الديني، فإن الحوادث التاريخية أثبتت عكس هذا التصور، فالشيء المؤكد أن العامل الديني شكل الإطار العام للسياسة البرتغالية في الشرق ويندرج تحته كل من العاملين الاقتصادي والاستراتيجي، أي أن العامل الديني شكل مرتكزاً أساسياً لانطلاق السياسة البرتغالية في الاتجاهات المختلفة، ولتحقيق الأهداف المتنوعة، فلو أخذنا بالرأي الذي يقول إن الدافع الديني قد انتهى بمجرد أن بدأ البرتغاليون يغرفون من معين تجارة الشرق الرابحة لأمكننا التساؤل لماذا إذن لم ينتهج البرتغاليون سياسة تجنبهم إثارة مشاعر المسلمين في الشرق وذلك بعدم التعرض إلى مقدساتهم الإسلامية وتدنيسها كما حدث في ساحل شرق إفريقية وفي الهند وفي الخليج عندما قاموا في فترات مختلفة بهدم المساجد وتدنيسها والدوس على المصاحف بسنابك الخيل؟ ثم لماذا هذا النشاط التنصيري الكبير الذي رافق الغزو البرتغالي منذ حملاتهم الأولى وإقامة المراكز التنصيرية ودعمها جنباً إلى جنب مع المراكز التجارية، إضافة إلى دفعها للعمل ومزاولة

(٢١) غي دي بوشير، تشريح جثة الاستعمار، ترجمة أدورد الخراط، دار الآداب، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص٤٤-٤٥؛ جمال قاسم، الاستعمار البرتغالي، ص٧٢.

شعائرها وطقوسها المسيحية في أوساط المجتمعات المسلمة، والمجتمعات الإفريقية في ساحل شرق إفريقية، كذلك محاولاتهم المتكررة الوصول إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، وجهودهم الدائبة للتحالف مع الحبشة النصرانية، كل ذلك تساؤلات ينبغي الإجابة عليها من قبل من يقللون من العامل الديني، لقد كان بإمكان البرتغاليين المحافظة على مكاسبهم الاقتصادية وتطبيق احتكارهم التجاري استناداً على أسطولهم البحري المتفوق وعدم مواجهتهم لأية قوى بحرية بإمكانها أن تعرقل تحقيق مخططاتهم، إن الإسلام بالنسبة للأوربيين في الماضي والحاضر (٢٢) يشكل شبحاً مخيفاً يقضّ مضاجعهم ويصيبهم بالارتباك، ويتضح ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين القادة البرتغاليين في الشرق وبين حكومة لشبونة.

ونخلص إلى القول إلى أنه مهما كانت أهمية العامل الاقتصادي والجهود البرتغالية التي بذلت في سبيل تحقيقه إلا أن العامل الديني يظل رائداً في مرتكزات السياسة البرتغالية في الشرق، وفي الوقت نفسه يبقى العامل الاقتصادي عاملاً عريضاً وكبيراً لا يمكن تجاهله في أية دراسة جادة وموضوعية.

أولاً: الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية (٩٠٤هـ /١٤٩٨م)

لقد واصل البرتغاليون محاولاتهم الوصول إلى المياه الشرقية، فبعد وقت قصير من إخفاق (بارثيلومودياز) في اجتياز رأس الرجاء الصالح، استطاع ملاح برتغالي آخر هو (فاسكو دي جاما Vasco De Jama) أن يعبر رأس الرجاء الصالح، ويصل إلى ساحل شرق إفريقية عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، أي بعد حوالي عشر سنوات من محاولة (بارثيلومودياز) التي لم يكتب لها النجاح، ووصل إلى (سفالة) في أقصى الجنوب على الساحل الإفريقي الشرقي وأقام فيها شهراً للراحة والتموين، ثم واصل سيره بعد

(٢٢) C.M.S. Archives, G3A7/0. Tucker to Mr. Baylis, December 30, 1904.

ذلك حتى وصل (موزمبيق) (٢٣)، ولقي وبحارته ترحيباً طيباً من أهالي البلاد ظناً منهم أنهم مسلمون أتراك أو مغاربة، وطلب (فاسكو دي جاما) من حاكم البلدة أن يمده بالأدلاء ليواصل رحلته إلى الهند التي هي هدفه الرئيس، فأنفذ معه من يرشده إلى ذلك(٢٤)، ولكن الحاكم والأهالي استطاعوا قبيل إقلاع الحملة أن يتعرفوا على هوية هؤلاء القادمين، الأمر الذي دفعهم إلى عدم التعامل أو التعاون معهم وبخاصة بعدما، عرفوا أنهم نصارى قادمون من أوروبا(٢٥).

وهذا الموقف من الأهالي يعكس نظرة المسلمين إلى نصارى أوربا، التي تمخضت عن الغزو الصليبي لبلاد الشام، وليس مستبعداً أن سقوط الوجود الإسلامي في أسبانيا ومطاردة المسلمين هناك كان يلقي بظلاله على مسلمي شرق إفريقية.

---

(٢٣) Sousa, F., op. cit, vol. I., p.63 ;

جمال قاسم، المرجع السابق، ص٦٣؛

وموزمبيق تقع في الجنوب من ساحل شرق إفريقية (أي جنوب رأس دليجارو) ، وقد كانت المعقل البرتغالي الوحيد في ساحل شرق إفريقية الذي لم يتمكن العمانيون من طردهم منه، وقد كان لها حاكم خاص يشرف على المستعمرات البرتغالية في القسم الجنوبي من الساحل التي تكثر فيها مناجم الذهب، كما اتخذها البرتغاليون مركزاً لشحن الرقيق، وقد ظلت البرتغال متمسكة بوجودها في (موزمبيق) حتى بعد أن اضطرت الدول الاستعمارية مثل انجلترا وفرنسا إلى الاعتراف بحق الشعوب الخاضعة لها بالاستقلال، ولم تظفر بالاستقلال إلا في عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤. انظر: راشد البراوي، الرق الحديث في إفريقية البرتغالية،ط١، القاهرة، ١٣٨٢هـ /١٩٦٢م، ص٧٢-٧٣؛ شوقي الجمل، الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي والتحرير الإفريقي من الاستعمال البرتغالي، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية،ج١، رأس الخيمة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٨٨-١٩٣.

(٢٤) جيان، المصدر السابق، ص٢٠٨ – ٢٠٩؛ إبراهيم العدوي، التجار العرب في أوغندا، مجلة نهضة إفريقية، العدد التاسع عشر، القاهرة ١٩٥٩، ص١٩.

(٢٥) دونالد وايدنر، تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ترجمة علي فخري وشوقي الجمل، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص١٠٦.

واصل (فاسكو دي جاما) رحلته متوجهاً إلى (ماليندي) (٢٦)، وقد استقبله حاكمها استقبالاً حسناً، وزوده بالمؤن والأدلاء لمواصلة رحلتهم إلى الهند، كما طلب حاكم ماليندي من (فاسكو دي جاما) أن يتوقف في (ماليندي) عند عودته من الهند(٢٧).

ويذكر أن (فاسكو دي جاما) استطاع من خلال هذا الجو المفعم بالود أن يلتقي بعدد من التجار العرب في (ماليندي)، جمع منهم حصيلة خبراتهم وتجاربهم عن الاتجار في المحيط الهندي(٢٨). لا شك إن هذا التباين في المواقف من حكام المدن التي مرت بها السفن البرتغالية، ما بين مرحب به وساخط عليه متخوف منه، تلقي ظلالاً من الشك حول طبيعة ونوع العلاقات السائدة بينهم.

أبحرت السفن البرتغالية من (ماليندي) في أبريل ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م تحت توجيه مرشدين حصل عليهم من (ماليندي) وبأمر من حاكمها، والواقع أنه كثر الجدل حول الشخصية التي قامت بإرشاد (فاسكو دي جاما) وتمكينه من عبور المحيط الهندي، ففي الوقت الذي تسكت فيه المصادر العربية المعاصرة عن اسم ذلك الرجل باستثناء (النهر والي) الذي أشار إلى أن (ابن ماجد) (٢٩) هو الذي أرشد فاسكو دي جاما، نجد

---

(٢٦) ماليندي تقع إلى الشمال من ممباسة، وهي الآن إحدى موانئ جمهورية كينيا، وقد لعبت دوراً كبيراً في تاريخ شرق إفريقية، وبخاصة إبان السيطرة البرتغالية حيث تحالف حاكمها مع البرتغاليين عند مقدمهم للوهلة الأولى وظل حليفاً لهم طوال فترة وجودهم في المنطقة انظر الملحق رقم(٢) .

(٢٧) المؤلف مجهول، السلوة في أخبار كلوة، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٥١؛ جيان، المصدر السابق، ص٢١٠.

(٢٨) Strandes, J., The Portuguese Period in East Africa, transletd J.F. Wallwork, ed J.S. Kirkman, (Nairobl, 1961) , p. 20-21 – 30 ;
جمال قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٩٣؛ السر سيد أحمد العراقي، الإسلام والصليبيون في ساحل إفريقية، مجلة الوثيقة، العدد الثالث عشر، السنة السابعة، البحرين ١٤٠٨/١٩٨٨، ص١٤١.

(٢٩) ابن ماجد: هو شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدي، عاش في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي، وعمر حتى مطلع القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي، كان ملاحاً

المصادر الأجنبية تلقفت رواية (النهروالي) ورددتها، بينما المصادر البرتغالية المعاصرة أشارت إلى أن ذلك الرجل هو مسلم ولكنها لم تشر إلى الاسم الصريح (لابن ماجد) (٣٠). وباعتقادي أنه إذا كان (ابن ماجد) فعلاً قد قام بإرشاد البرتغاليين لعبور المحيط الهندي فهذا فضل يسجل للملاحة العربية الإسلامية ولابن ماجد شخصياً، مع العلم أنه من المؤكد أن (ابن ماجد) إذا كان هو الذي قام بذلك فإنه لم يكن يدرك أبعاد وخطورة مجيء هؤلاء، ولو أنني أميل إلى أنه ربما قام بذلك أناس آخرون كلفهم حاكم (ماليندي) ولا يستغرب ذلك لأن المحيط الهندي وساحل شرق إفريقية بالذات مليء بالملاحين وربان السفن الذين من المؤكد أنهم ترددوا مراراً فيما بين شاطئ المحيط الهندي الشرقي والغربي، ولكن الشيء الذي لا يمكن إنكاره أن (فاسكو دي جاما) لم يصل إلى ساحل (ملبار)(٣١) إلا بواسطة أدلاء ومرشدين يعرفون طرق الملاحة في المحيط ومن أهالي المنطقة.

مشهوراً من أهالي (جلفار) (رأس الخيمة) على الخليج العربي، له عدة مؤلفات في فنون الملاحة، وعلم الفلك والبحار، كان مشهوراً في زمانه من رواد الملاحة في المحيط الهندي. لمزيد من التفصيل انظر: أنور عبد العليم، ابن ماجد الملاح، سلسلة أعلام العرب، العدد ٦٣، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

(٣٠) لمزيد من التفصيل عن الجدل الذي أثير حول شخصية ابن ماجد، وأنه هو الذي قام بإرشاد فاسكو دي جاما من ساحل شرق إفريقية إلى الهند انظر: النهروالي قطب الدين محمد بن أحمد، البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرق على طبعه حمد الجاسر، دار اليمامة، الطبعة الأولى، الرياض ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص١٨-١٩؛ التاجر علي، الربان أحمد بن ماجد، دفاع وتقييم، مجلة العرب، ج٣-٤، السنة الخامسة، رمضان وشوال، الرياض ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م؛ حسام الخادم، ابن ماجد ودوره في اكتشاف طريق الهند البحري ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، مركز الوثائق التاريخية، البحرين ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٣١) يحتل إقليم ملبار الجزء الجنوبي الغربي من ساحل الهند الغربي، وهو إقليم خصب تكثر فيه التوابل، وبه كثير من الموانئ الهامة مثل (كاليكوت- كوشين- كنانور) وينقسم الساحل في ذلك الوقت إلى عدد من الوحدات السياسية الصغيرة، وهو يشرف على بحر العرب، ويعرف الآن باسم (كيرالاkerala) انظر: أحمد السادتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، ج١، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت، ص٢١٨-

إن إخفاق (فاسكو دي جاما) في إقامة علاقات تجارية مع حاكم (كاليكوت) قد يتمخض عن إنشاء مركز تجاري، لا يقلل من أهمية تلك الرحلة التي كان هدفها الأول اكتشاف الطريق المؤدي إلى الهند، والتعرف على الأوضاع السائدة في تلك المناطق، وأحوال أهلها، فبعد أن مكثت الحملة في ساحل ملبار بعض الأشهر، عادت إلى ساحل شرق إفريقية، ويذكر أن (فاسكو دي جاما) بدأ من شمال الساحل بالاعتداء على المدن هناك، حيث قصفها بمدافعه وروّع سكانها(٣٢)، ثم رست الحملة في (ماليندي)، وهناك توطدت العلاقات بين حاكمها و(فاسكو دي جاما)، فقد تبادلا الهدايا فيما بينهما(٣٣).

ويُذكر أن خطة (دي جاما) في أول الأمر كانت استخدام سياسة اللين أو سياسة ودية مع سكان المناطق التي يمر بها، ومحاولة عقد صداقات مؤقتة مع الحكام هناك، حتى يتيح له ذلك الوقوف عن كثب على طبيعة الأوضاع هناك ودراستها، وقد أوافق (سونيا هاو) على السياسة التي انتهجها (دي جاما) والمتسمة باللين، وذلك فيما يختص بساحل (مليبار) في الهند، ولكن اختلف معه فيما يخص ساحل شرق إفريقية، حيث أكدت المصادر بأن البرتغاليين انتهجوا سياسة اتسمت بالقسوة معهم منذ البداية، سواء عندما أخفوا هويتهم عن سكان الساحل متظاهرين بأنهم أتراك، أو عندما قصف (دي جاما) بمدافعه مدن الساحل عند عودته من الهند وتوجهه إلى (ماليندي)، كما أشار إلى ذلك أيضاً (وايدنر) عندما ذكر أن (دي جاما) اتخذ موقفاً معادياً لمدن ساحل شرق إفريقية من الوهلة الأولى، ويعزو ذلك إما إلى التعصب الديني، أو إلى خوفه من قوة العرب والمسلمين هناك والعمل على كسر شوكتهم، وقتل روحهم

.٢٢٥

(٣٢) الرمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ط١، جدة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص١٦٦.

(٣٣) Sousa, F., op. cit, vol. I, p.63 ;

جيان، المصدر السابق، ص٢٠٩.

المعنوية منذ البداية[٣٤]. لذا فإن القول بأن (دي جاما) قد التزم سياسة اللين في المرة الأولى من رحلته إلى الشرق وبخاصة فيما يتعلق بساحل شرق إفريقية قول ينافي الحقائق التاريخية الثابتة.

ويعزى الاهتمام البرتغالي بساحل شرق إفريقية لسببين هما: الأول – القضاء على الوجود العربي الإسلامي هناك، والسيطرة على تجارته، أما الثاني – فهو تهيئة ساحل شرق إفريقية ليكون بمثابة محطة إمداد وتموين للسفن البرتغالية من وإلى الهند، وقاعدة توفر الأمن والحماية لهذا الخط الملاحي[٣٥]. وبوصول (فاسكو دي جاما) إلى ساحل شرق إفريقية والهند، يكون بذلك قد وضع أول ركيزة للاستعمار الأوربي للشرق الإسلامي في العصر الحديث.

أدى النجاح الذي حققته حملة (فاسكو دي جاما)، وما يحمله من اقتراحات حول طبيعة بلاد الشرق وسبل السيطرة عليها، أدى ذلك بملك البرتغال إلى أن يعد حملة كبيرة بقيادة (الفاريز كابرال Alvarez Cabarl) عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م.

والواقع أن حملة (كابرال) لم تحقق أهدافها بشكل حاسم، صحيح إنه نجح في إقامة مركزين تجاريين في (كوشينوكنانور) في الجزء الجنوبي من ساحل ملبار، ولكنه أخفق في إبراز سلطة ملك البرتغال وهيبته في ساحل شرق إفريقية عن طريق عقد معاهدات مع حكام المدن والإمارات الإسلامية في الساحل [٣٦].

لذا دفعت البرتغال بـ (فاسكو دي جاما) للمرة الثانية عام ٩٠٨هـ/ فبراير ١٥٠٢م، في أسطول يتكون من عشرين سفينة وحددت مهمته بالآتي: تأكيد السيطرة البرتغالية على ساحل شرق إفريقية، وإغلاق منافذ

---

(٣٤) وايدنر، المصدر السابق، ص١٠٦.

(٣٥) جمال قاسم، الاستعمار البرتغالي، ص٦٨.

(٣٦) Barbosa, D., The Book of Durate Barbosa: An Account of the Countries bordering on the Indian ocean About the year 1518 A. D. Translated from the Portuguese text by MausalIengwrth Dames, 1 vols. The Haklaytsocity , (London, 1918) , pp. 56-7 ;

جيان، المصدر السابق، ص٢١٣؛

بانيكار. ك. م.، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالرزاق جاويد، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ص٣٨.

البحار المطلة على المحيط الهندي وبخاصة البحر الأحمر، وجعل التجارة في تلك المناطق حكراً على البرتغاليين، ومنع العرب والمسلمين من الاشتغال فيها، وتوفير الحماية للمراكز البرتغالية في (كوشينوكنانور) في ساحل ملبار، كما حددت مهمة جزء من هذا الأسطول بمهاجمة المراكب التجارية العربية والإسلامية في المحيط الهندي(٣٧).

وفي العام التالي دفعت البرتغال بأسطول آخر بقيادة (لورانزورافاسكو LoranzRafasco) (٣٨) الذي أوكل إليه بعض المهام في ساحل شرق إفريقية، حيث ظل يبحر قبالة الساحل لمدة شهرين، استولى خلالها على عدد من السفن الإسلامية المحملة بالعاج والصمغ والمنسوجات القطنية، وهاجم (زنجبار) (٣٩) وقصفها بمدافعه، وأرغم حاكمها على توقيع اتفاقية يدفع بموجبها ضريبة من الذهب، ويعلن خضوعه لملك البرتغال كما هاجم بعض المدن الأخرى(٤٠).

---

(٣٧) Sousa, F., op. cit, vol. I., pp. 64 ;
Gray, J., Early Portugese Missionaries in East Africa , (London, 1960) , p. 5 ;
حراز، المرجع السابق، ص١٤.

(٣٨) هذا الأسطول جزء من أسطول كبير، أرسلته البرتغال عام ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، وعند وصوله للمحيط الهندي قسم إلى أساطيل صغيرة، لكل منها مهمة خاصة، حيث اختص (رافاسكو) بساحل شرق إفريقية، و(البوكيرك) بحماية المراكز البرتغالية في (كوشينوكنانور) ، و(سلادانا Soldana) أوكلت إليه مهمة مهاجمة السفن العربية والإسلامية في القرن الإفريقي بالقرب من مدخل البحر الأحمر. انظر:
Sousa, F., op. cit, vol. I., p. 72.

(٣٩) زنجبار ثان أكبر جزر ساحل شرق إفريقية بعد جزيرة مدغشقر وتبلغ مساحتها (٦٤٥ ميلاً مربعاً) ولا تبعد عن الساحل أكثر من خمسة وعشرين ميلاً وتشتهر بخصوبتها الزراعية، كما أنها أكبر منتج ومصدر للقرنفل في العالم، وهي الآن تابعة لجمهورية تنزانيا، بعد اتحادها مع تنجانيفا بعد سقوط الوجود العربي فيها عام١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، وأطلق على البلدين اسم جمهورية تنزانيا.انظر الملحق رقم(٢) .

(٤٠) Ibid, p. 75 ;
أحمد حمود المعمري، عمان وشرق إفريقية، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٥٠.

إن بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي – يعد بداية انهيار العصر الذهبي لمدن وإمارات ساحل شرق إفريقية على يد البرتغاليين، حيث سيطروا على تلك المناطق في مدة زمنية محدودة، وانتقلت السيادة من أيدي المسلمين إلى أيدي الصليبيين، وانتهج البرتغاليون سياسة اتسمت بالبطش والتنكيل، أدت إلى فرار العرب والسواحليين المسلمين إلى المناطق الداخلية، الأمر الذي هيأ الفرصة في الوقت نفسه إلى انتشار الإسلام بين القبائل الأفريقية في الداخل(٤١).

وقد ركز البرتغاليون على القسم الجنوبي من الساحل القريب من مناجم الذهب، الذي يتمتع باعتدال مناخه نظراً لبعده عن خط الاستواء، لذا فقد قاموا بإنشاء مركزاً لهم في (سفالة)، وهو أول مركز إداري، وأهم نقطة بدأ منها نشاط البرتغاليين التجاري والتنصيري، ثم نقلوا هذا المركز إلى (موزمبيق) في مطلع القرن الحادي عشر الهجري – السابع عشر الميلادي(٤٢).

وقد اكتفى البرتغاليون في شمال الساحل بمحالفة حاكم (ماليندي)، بينما وقعت المدن الأخرى تحت السيادة البرتغالية، والاعتراف بسلطتهم عن طريق دفع الضريبة، وكان البرتغاليون قد أنشأوا في بعض مدن الساحل مستعمرات رئيسة وقواعد بحرية(٤٣)، مثل (سفالة وموزمبيق) كما ذكرنا، و(كلوة) (٤٤)، كما أنشأوا مستعمرات أقل شأناً في مدن الساحل الأخرى مثل: (ممباسة، زنجبار، بمبا، بته) (٤٥)، أما بقية المدن فقد

---

(٤١) Serjeant, R., B,: The Portuguese of the South Arabian coast, (London, 1967) , pp. 10-11.

(٤٢) Grenvill, F., the Medivel History of the coast of Tanganiyka, (Oxford, 1962) , p. 134 ; صلاح العقاد وجمال قاسم، زنجبار، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ص٢٢.

(٤٣) سعيد علي المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث والثقافة بعمان، ط٢، مسقط، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص١٦٥؛ حراز، المرجع السابق، ص١٨.

(٤٤) كلوة مدينة تقع على ساحل شرق إفريقية إلى الجنوب من (مافيا) كان لها دور كبير في تاريخ ساحل شرق إفريقية منذ القرن الخامس الهجري وحتى قدم البرتغاليون في أوائل القرن العاشر الهجري، وهي الآن تابعة لجمهورية تنزانيا. انظر الملحق رقم (٢) .

(٤٥) ممباسة تقع على مسافه مائة ميل إلى الشمال من جزيرة زنجبار، وقد لعبت دوراً رياديا في تاريخ شرق إفريقية

احتفظت ببعض نظمها المحلية مقابل قبول السيادة البرتغالية ودفع الضريبة(٤٦).

لقد أصبح مؤكداً لدى البرتغاليين أن سيطرتهم على ساحل شرق إفريقية من القلعة التي أقاموها في (موزمبيق) لم يعد أمراً كافياً، وأنه يتعين عليهم بناء قلعة أخرى في شمال الساحل، وإقامة حكومة جديدة تتولى إدارة هذا القسم، لذا قرروا اتخاذ (ممباسة) عاصمة لممتلكاتهم في ساحل شرق إفريقية، إدراكاً منهم لأهميتها الإستراتيجية، وسهولة تحصينها بحيث تشكل نقطة يمكن الدفاع عنها(٤٧)، وقد تم بناء تلك القلعة التي أطلقوا عليها قلعة (المسيح) أو قلعة (يسوع FurtJosus) عند مدخل الميناء، وقد بدئ في بنائها عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م واستغرق سنتين، واستكمل مع إضافة نقط أخرى فيها عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م، وتعتبر أعظم حصون البرتغاليين في ساحل شرق إفريقية(٤٨). وبهذا ترسخت أقدامهم في (ممباسة)، وظهر معها تأكيد سيطرتهم على القسم الشمالي من الساحل، ومن ثم الإجهاز على المقاومة الوطنية هناك.

لم يكتف البرتغاليون ببناء قلعة يسوع في (ممباسة) بل شرعوا في بناء قلاع أخرى ولكن ليس على مستوى قلعة يسوع، وبخاصة في المدن التي تعاونت مع حملة (علي ميرال بك)، فقد قاموا ببناء قلعة في (بتة) التي تم إخضاعها نهائياً لسطلتهم، وربطها بـ (ممباسة) وتعيين أحد

في الماضي، وهي الآن من المواني المهمة لجمهورية كينيا على المحيط الهندي، أما (بمبا) فهي جزيرة صغيرة تقع إلى الشمال من زنجبار لا يفصلها عنها إلا بضعة أميال تقدر مساحتها بحوالي(٣٨٠ ميلاً مربعاً) ، أما= (بته) هي احدى الجزر المقابلة للساحل الإفريقي الشرقي وتقع إلى الشمال من (ممباسة) وتضم بعض القرى التابعة لها مثل (فازا) و(سيو) و (ماندا) و (لامو) وهي الآن تابعة لجمهورية (كينيا) . انظر: الملحق رقم(٢) .

(٤٦) صلاح العقاد وجمال قاسم، المرجع السابق، ص٢٣.

(٤٧) Marharat, M., Furtjesusmombasa, (Neirobi, 1934) , p. 6.

(٤٨) المغيري، المرجع السابق، ص١٨٦؛

Boxer, C.R., Fort jesus and the Portuguese in momasa 1593- 1729 , (London, 1960) , p.

مؤيديهم حاكماً عليها(٤٩)، أما (بمبا) فقد قام البرتغاليون أيضاً ببناء قلعة بها، وذلك لتأكيد سيطرتهم عليها، ولقمع ثورة الأهالي فيها (٥٠).

ونلاحظ أن البرتغاليين ركزوا سلطتهم وأكدوها في جميع المدن التي تعاونت مع العثمانيين، كما نلاحظ من جراء ذلك أن التأثير العثماني كان قوياً في تلك المناطق، كما أن تطلعات الأهالي لهذا التأثير كانت كبيرة أيضاً (٥١).

---

(٤٩) Marharat, M, op. cit, p. 11.

(٥٠) المغيري، المرجع السابق، ص١٨٩.

(٥١) أن المساهمة العثمانية في الحد من الوجود البرتغالي في الساحل جاءت متأخرة قياساً على بداية الوجود العثماني الفعلي في البحر الأحمر، إضافة إلى أن تلك المساهمة لم تكن مباشره ومع ذلك فقد كانت إيجابيه إلى حد ما، حيث كان مجرد ظهور العثمانيين في البحر الأحمر يعد عوناً معنوياً للمسلمين هناك، بل كان مصدر إلهام لهم للقيام بالثورات ضد البرتغاليين واستمرارية هذه الثورات لاعتقاد المسلمين هناك بأن الدوله العثمانية سوف تأتي لنجدتهم يوماً ما، ومن أهم حملات العثمانيين ضد البرتغاليين في الخليج حملة (بيري ريس) وحملة (مرادبك) وحملة (سيد علي ريس) وجميع تلك الحملات مدفوعة من السلطان سليمان القانوني ٩٢٧-٩٧٤هـ / ١٥٢٠-١٥٦٦م، الذي أدرك فداحة الأضرار الدينية والسياسية والاقتصادية التي يمثلها الوجود البرتغالي وقد ختم العثمانيون حملاتهم على الخليج بحملة أمير البحر (علي ميرال بك) الذي كان مدفوعاً من قبل العثمانيين حيث وصل إلى مقديشو عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م الذي نجح في اشعال الثورة ضد البرتغاليين، وزعزعة الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية. لمزيد من التفصيل عن الوجود العثماني في تلك المنطقة انظر:

جيان، المصدر السابق؛ عبدالوهاب القيسي، المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية،ج١، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م؛ مايلزمس.ب، الخليج بلدانه وقبائله ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٧٤ وما بعدها.

ثانياً: استنجاد المسلمين في ساحل شرق إفريقية بالإمام سلطان والهجوم على زنجبار وبتة عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م

كان طرد البرتغاليين من (هرمز) عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م ثم طردهم من (مسقط)، قد أضاع لقبين هامين من ألقاب ملوك البرتغال وهما (سيد الفتح والملاحة في جزيرة العرب وفارس) ولم يبق للبرتغاليين في منطقة الخليج سوى أثر بسيط هو عبارة عن وكالة تجارية في ميناء (كونج) على الساحل الفارسي، ولقد كان للانتصارات العمانية على البرتغاليين في (مسقط) صداها عند المسلمين في ساحل شرق إفريقية، فما أن وصلت إليهم تلك الأخبار حتى حفزت الأهالي هناك وبخاصة (زنجبار وبمباوممباسةوبتة) إلى طلب النجدة من الإمام (سلطان بن سيف الأول) لمساعدتهم على التخلص من السيطرة البرتغالية، وعمت الثورة معظم المدن والجزر هناك(٥٢).

لقد أصيب الوجود البرتغالي بخسائر وتدهور في أوضاعهم في ساحل شرق إفريقية نتيجة الضعف العام الذي كانت تعانيه الإمبراطورية البرتغالية في الشرق، حيث كانوا يفقدون سيطرتهم هناك بشكل مستمر وعلى مدى بضعة عقود، وقد جعلت الروابط الدينية والتجارية الراسخة التي قامت منذ زمن بعيد بين العمانيين وسكان ساحل شرق إفريقية، جعلت من غير الممكن تجنب الصدام العماني البرتغالي واتساع نطاقه حتى شرق إفريقية(٥٣).

على انه تجدر الإشارة إلى التأثير العماني على سير الأحداث في ساحل شرق إفريقية الذي بدأ بعد استرداد العمانيين ميناء (صحار) عام ١٠٥٣هـ/ ١٦٤٣م، وذلك عندما بدأت السفن التجارية العمانية تتردد إلى هناك. ومن المؤكد أنها كانت تنقل معها أخبار الانتصارات العمانية على

---

(٥٢) (IOR) . I/3/141, Documentos. 56, fol, 466, p. 5, Letter Viceroy to the king 28 January 1653.

(٥٣) Coupland, R. East Africe and is in vaders (London, 1938) , p. 66 ;

وندال، تاريخ عمان، وزارة التراث والثقافة بعمان، ط٢، مسقط، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٦٢.

البرتغاليين في عمان (٥٤). لذا نلاحظ أنه ابتداءً من عام ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م وحتى عام ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م أخذ المسلمون هناك والقبائل الأفريقية المنتشرة حول الساحل تشن حرباً على البرتغاليين، مما دفع حكومة البرتغال إلى تكليف (فرانسسكوا كابريرا Francisco Cabreira) لقمع تلك الحركات واستعادة السيطرة على الساحل، واستباق التدخل العماني وإحباطه(٥٥).

شكّل طرد البرتغاليين من عمان نقطة الانطلاق للجهاد العماني خارج الأراضي العمانية، حيث استجاب الإمام (سلطان بن سيف) إلى طلب المساعدة الذي تقدمت به كل من (زنجبار وبتة) وذلك عندما شنت السفن العمانية هجوماً على الحامية البرتغالية في (زنجبار) في أوائل عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م، وتمكنت من قتل جميع أفرادها وبعض المنصرين، فذهبت جهود (كابريرا) أدراج الرياح(٥٦)، ثم اتجهت القوة العمانية بعد ذلك إلى (بتة) و(فازا) وحررتهما من السيطرة البرتغالية، كما جعل الخوف من العمانيين الكثير من الحكام المحليين يتبرأون من المواثيق والمعاهدات التي سبق وأن أبرمها معهم القائد البرتغالي (كابريرا)، كما عمت ثورة عارمة معظم مدن الساحل ضد البرتغاليين (٥٧).

وأعد نائب الملك بالهند قوة بحرية من ست سفن كبيرة تحت قيادة (نيدام دي بينتو Nidam De Bineto) وعهد إليه التوجه إلى ساحل إفريقية، وإخماد الثورات هناك، وتأديب الحكام الذين تعاونوا مع العمانيين،

---

(٥٤) (IOR) . E/3/19, 1962. Letter Gombroon to surat 16 Novambr 1645.

(٥٥) Strandes, J., op. cit, pp. 226-7.

(٥٦) (IOR) . I/3/140, Documentos. 56, fol, 466, p. 5 ;

سالم حمود شامس السيابي، عمان عبر التاريخ، ج٣، وزارة التراث والثقافة بعمان، ط٢، مسقط، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٢٤٥.

(٥٧) (IOR) . I/3/140, Documentos. 56, fol, 466, p. 5 ;

Gray. J., op. cit, p. 56;

عبد الرزاق عثمان، المرجع السابق، ص٤٧؛ عدنان الزبيدي، عمان وسياسة نادر شاه، رسالة ماجستير غير منشورة، المكتبة المركزية جامعة بغداد، رقم ٦٨٤/ب، بغداد ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٩.

وتعزيز حامية (ممباسة) (٥٨)، ولكن اضطراب الأحوال في المستعمرات البرتغالية في الهند نتيجة الضغوط التي كانوا يتعرضون لها من الهولنديين وبعض ملوك المقاطعات الهندية قد حال دون إرسال تلك السفن الست، واكتفى نائب الملك بإرسال سفينة واحدة كبيرة وبعض القوارب الصغيرة(٥٩).

أدرك الإمام (سلطان بن سيف) سلطان عمان أنه – يتعين عليه – إن هو أراد مواصلة جهاده ضد البرتغاليين في ساحل شرق إفريقية، أن يدعم ويعزز أسطوله البحري، حيث إن الصراع بالدرجة الأولى هو صراع بحري، ولأن امتلاك قوة بحرية موازية لقوة العدو يعد أمراً حاسماً (٦٠).

وتجدر الإشارة إلى أن صراع البرتغاليين مع الهولنديين في الفترة ١٠٣٤- ١٠٦٥هـ/ ١٦٢٤- ١٦٥٤م استنزف قوتهم، إذ شنت شركة الهند الهولندية حرباً مستمرة ضد البرتغاليين(٦١)، وتعرضت المواقع البرتغالية في ساحل الهند الغربي إلى هجمات متتالية عرّضتها لخسائر فادحة(٦٢).

---

(٥٨) Ibid, p. 5.

(٥٩) (IOR) . I/3/140, Documentos. 56, fol, 491, p. 6 , Letter viceroy to the king 4 March 1653.

(٦٠) مايلز، المصدر السابق، ص١٩٥؛ وزارة التراث القومي والثقافة بعمان، عمان تاريخاً وعلماء، مسقط ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٩.

(٦١) قام الإنجليز بتأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م بمقتضي مرسوم ملكي حصل عليه مجموعة من تجار لندن من ملكة بريطانيا، كما شجعت الحكومة الهولندية بعض التجار الهولنديين على تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٠١١هـ/١٦٠٢م وعلى إثر تأسيس هاتين الشركتين أخذت= المنافسات تحتدم بين البرتغاليين من ناحية و الإنجليز والهولنديين من ناحية أخرى، ومع مرور الوقت أسهموا في زحزحة البرتغاليين عن مكانتهم التي تمتعوا بها، فقد كان صعود نجم الشركات الانجليزية والهولندية يمثل انتصاراً لنظام فردي على نظام احتكاري تمارسه دوله، وبذلك أصبح البرتغاليون يواجهون خصماً من نوع آخر يختلف عن الأسيويين لمزيد من التفصيل انظر: ولسون، المصدر السابق، ص٨٩-١٢٥.

(٦٢) (IOR) . I/3/139, Documentos. 48, fol, 290, Letter Viceroy to the king 1 February 1644 pp. 1, 2.

فقد خسر البرتغاليون أربعين سفينة في إحدى المعارك الحربية بينهما، ثم بعد ذلك ركز الهولنديون هجماتهم ضد البرتغاليين في جنوب شبه القارة الهندية فيما بين عامي ١٠٦٥- ١٠٦٦هـ/ ١٦٤٤- ١٦٥٥م، ولم يأت عام ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م إلا والمواقع التي كانت للبرتغاليين في تلك المنطقة تحت السيطرة الهولندية(٦٣).

والواقع أن خسائر البرتغاليين الفادحة في تلك المناطق قد أثرت على قدراتهم العسكرية بشكل كبير رغم احتفاظهم بمواقع مهمة في ساحل الهند الغربي، ومن الطبيعي – إزاء تلك الخسائر – أن يولوا مواقعهم ونفوذهم في ساحل شرق إفريقية اهتماماً خاصاً، لا سيما وأن تلك المناطق لا تزال بعيدة عن نفوذ الأساطيل الأوربية الأخرى.

نتيجة لتلك الأحداث والتطورات، ونتيجة لزوال التهديد البرتغالي (لمسقط) في تلك الفترة – على الأقل – وذلك عندما اضطر نائب الملك البرتغالي بالهند إلى سحب معظم قطع الأسطول البحري البرتغالي الكبيرة من الخليج التي كانت تفرض حصاراً على مسقط، وذلك لمواجهة الهجمات الهولندية ضد المواقع البرتغالية في (سيلان)، ومحاولة كبح جماحها، إضافة إلى قيام أحد ملوك المقاطعات الهندية في تلك الفترة بشن هجمات كبيرة ومتتالية على المراكز البرتغالية في (جوا)(٦٤) و(منجلور) وغيرها من تلك المراكز الواقعة على ساحل الهند الغربي(٦٥)– وبعد أن استكمل العمانيون بناء أسطولهم البحري، - بدأوا بالتحول من سياسة الدفاع إلى الهجوم، وبالتحديد سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م حيث بدأت مرحلة جديدة من مراحل الجهاد العماني في ساحل شرق إفريقية، - فكما ذكرنا سابقاً – فقد تعرض الساحل إلى موجة من القمع البرتغالي بعد الحملة

---

(٦٣) Ibid, pp. 3-4-5-6-7 ;

سلوت – ج – ب، سطور من تاريخ البحرين والخليج اعتماداً على الوثائق الهولندية، مجلة الوثيقة، العدد الحادي عشر، السنة السادسة، البحرين، ذي القعدة، ١٤٠٧هـ/ يوليو ١٩٨٧م، ص٩٦.

(٦٤) جوا: اتخذها البوكيرك مقراً لحكومة البرتغال بالشرق بدلاً من (ديو) وذلك عام ٩١٦هـ / ١٥١٠م. ملحق رقم (٢) .

(٦٥) (IOR) . I/3/140, Documentos. 56, fol, 491, pp. 6-7.

العمانية الأولى، تعرض الأهالي خلالها إلى الاضطهاد والظلم، الأمر الذي دفعهم إلى طلب المساعدة من الإمام (سلطان بن سيف) الذي جهز أسطولاً قاده بنفسه، حيث وصل ذلك الأسطول إلى ساحل شرق إفريقية في أوائل عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م، وبدأ فرض حصار على (ممباسة)[٦٦].

لقد اضطر قائد الحامية البرتغالية في (ممباسة) إلى التسليم بعد استيلاء العمانيين على الميناء مباشرة، وتم دخول القوات العمانية إلى القلعة وذلك في عام ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م بعد حصار دام خمس سنوات[٦٧]، ويُذكر أن الظروف لم تتح استمرار قيادة الإمام (سلطان بن سيف) للقوة العمانية فيشاهد بنفسه سقوط (ممباسة)، فقد عاد إلى عمان قبل سقوط القلعة واستسلام الحامية البرتغالية، وتعزى أسباب ذلك إلى الاضطرابات التي حدثت في عمان[٦٨].

والواقع أن المصادر التي تحدثت عن عودة الإمام لم تشر إلى نوع وماهية الاضطرابات التي أشاروا إلى أنها حدثت في عمان، كما أنها لم تشر أيضاً إلى تاريخ عودة الإمام، ومما يؤسف له أشد الأسف أن المؤرخين العمانيين لم يكتبوا لنا أخبار جهاد العمانيين بالتفصيل الواسع الذي اعتادوا أن يكتبوا به معاركهم القبلية المحلية، كما أن تلك المصادر لم تشر إلى أي اضطرابات داخلية حدثت في عمان إبان عهد الإمام

---

(٦٦) Guillain, C., Documents surl'historie, le geographie, et le commerce de l'Afriqueorientale, 3vols, (paris, 1856) , p. 513 ;
المغيري، المصدر السابق، ص١٩٣ – ١٩٤.

(٦٧) الأمين بن علي المزروعي، مخطوط تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، نسخة مصورة في قسم التصوير العلمي والميكروفلم بالمكتبة المركزية جامعة أم القرى بمكة المكرمة تحت رقم ٢٩٠٤، مأخوذ عن الأصل الموجود لدى ورثة السيد علي جعفر الوهط السقاف العلوي الحضرمي بمكة المكرمة، ورقة ١٦؛ المغيري، المرجع السابق، ص١٩٣؛ حراز، المرجع السابق، ص٣٥؛ المعمري، المرجع السابق،ص٦.

(٦٨) Owen, W. F, Narrative of voyages to Explore the Shores of Africa, Arabia and Madagscar, 2vols, (London, 1833) , p. 414 ;
المعمري، المرجع السابق، ص٦٦.

(سلطان بن سيف الأول)، وفي اعتقادي أن عودة الإمام من ساحل شرق إفريقية طبيعية إذ لا يعقل أن يغيب عن بلاده لمدة خمس سنوات وهو الحاكم العام فيها وتحتاج إلى من يرعى شئونها ويدافع عنها لا سيما وأن التهديد البرتغالي ما زال قائماً، بل لا يستبعد أن الإمام عاد قبل سقوط (ممباسة) بسنوات.

ومهما يكن من أمر فإن القوات العمانية قد أجهدت من طول مدة الحصار، فلم يواصلوا تأكيد سيطرتهم على (ممباسة) وبقية أجزاء الساحل، وكان ذلك مؤلماً لأهالي الساحل، الأمر الذي مكن البرتغاليين من إعادة فرض سيطرتهم على (ممباسة) مرة أخرى(٦٩)، ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ سيطرة البرتغاليين ثانية على (ممباسة) بعد ذلك الحصار الناجح الذي فرضه العمانيون، إلا أن المؤكد كما ذكر (أوين Owen) أن البرتغاليين قد عادوا بقوات لخوض المعركة مع العمانيين في (ممباسة) فقاتلوهم حتى تمكنوا من إخراجهم من القلعة، وأصبح البرتغاليون يسيطرون على المدينة سيطرة تامة، كما ذكر أنهم بدأوا بممارسة جبروتهم المعهود، فظلموا شعب الساحل، وحكموا عليهم بالموت بسبب لجوئهم إلى طلب المساعدة من العمانيين، الأمر الذي أدى إلى هروب عدد كبير من السكان خارج (ممباسة)(٧٠)، وقد أورد (جيانGuillain) ما ذكره (أوين) إلا أنه يحدد استعادة البرتغاليين (لممباسة) بعد سنة من سقوطها بيد العمانيين، أي في عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م(٧١).

---

(٦٩) المزروعي، المصدر السابق، ورقة ١٦؛
Guillain, C., op. cit, vol. 11, p. 514 ;
Coupland, R., op. cit, p. 67.

(٧٠) op. cit, vol. II, pp. 414-15.

(٧١) op. cit, vol, II, p. 514 ;

ويذكر بعض الباحثين المحدثين أن البرتغاليين سيطروا على (ممباسة) ثانية عام ١٦٦١م وبناء عليه يكون حصار القلعة لمدة سنة فقط، كما يذكر أيضاً بأن العمانيين لم يستطيعوا السيطرة على القلعة بل سيطروا على المدينة فقط وذلك بسبب عودة الإمام (سلطان) إلى عمان بسبب الاضطرابات هناك، وهذا غير صحيح لأن أغلب المصادر التي تحدثت عن تلك الحملة تشير إلى أن الحصار دام خمس سنوات وأن القلعة سقطت عام

لقد تلا ذلك عملية تطهير قام بها البرتغاليون ضد مدن الساحل لتعاونها مع الحملة العمانية، ولكن السكان لم يذعنوا، بل زادوا من مقاومتهم وكراهيتهم للبرتغاليين الذين قاموا إزاء ذلك بتعيين بعض حلفائهم من المسلمين على بعض المدن هناك محاولة منهم لتخفيف حدة الغضب والكراهية ضدهم، ولكن ذلك لم يسفر إلا عن ازدياد الغليان والغضب بين السكان(٧٢)، وفي الوقت الذي استعاد فيه البرتغاليون سيطرتهم على (ممباسة) فإن سيطرتهم على بعض أجزاء الساحل الأخرى لم تتم بسهولة، فقد واجهوا مقاومة عنيفة في كل من (بتة – سيو – ماندا) وظلت تلك المدن والقرى تقاوم حيث ما زال تأثير العمانيين فيها كبيراً باستثناء (فازا) (٧٣).

والواقع أن هذه الحملة وفتح (ممباسة)، وقيام الإمام (سلطان بن سيف الأول) بقيادة هذه الحملة بنفسه، دليل على الاهتمام الذي كان يوليه العمانيون لساحل شرق إفريقية، وهو اهتمام ينبع ولا شك من عمق الروابط الدينية والحضارية بين عمان وتلك المناطق، إذ لو كان غير ذلك مثل الأهداف التجارية لكان بمقدور العمانيين أن يزاولوا التجارة في تلك الفترة بكل حرية سواء مع ساحل شرق إفريقية أو مع الهند، مثلهم مثل الإنجليز والهولنديين والأرمن والهنود والمصريين واليمنيين وغيرهم، ولكن من المؤكد أن الجهاد العماني في تلك المناطق لم يكن لأهداف إستراتيجية وسيتضح ذلك فيما بعد.

والملاحظ أن البرتغاليين حتى ذلك الوقت تجنبوا المواجهة المباشرة مع العمانيين في ساحل شرق إفريقية، وهذا في اعتقادي عائد إلى عدة

١٦٦٥م ومن المحتمل أن البرتغاليين استعادوها عام ١٦٦٦م.

انظر: عائشة علي السيار، دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقية ١٦٢٤– ١٧٤١، دار القدس، ط١، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٩٦.

(٧٢) المزروعي، المصدر السابق، ورقة ١٦؛ السيار، المرجع السابق، ص٩٧.

(٧٣) Coupland, R., op. cit, pp. 66-7 ;

كيركمان، جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في ساحل شرق إفريقية، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج٥، وزارة الثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٢٩٢.

أسباب هي: الأول: أن البرتغاليين كانوا يعتقدون أن أية مواجهة مع العمانيين هناك ليست مضمونة النتائج نظراً للتأييد شبه المطلق الذي يحظى به العمانيون من سكان الساحل وثوراتهم المستمرة ضد البرتغاليين. والثاني: أن الهجمات العمانية نفسها تتم على شكل غارات متقطعة ومتباعدة أحياناً. أما الثالث: فإن البرتغاليين ما زالت تراودهم آمال استعادة (مسقط) وضرب الإمامة العمانية في العمق، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى انعدام تأثيرهم على ساحل شرق إفريقية. ولقد أدرك العمانيون هذا الواقع فاحتفظوا بالجزء الأكبر من أسطولهم في مياه الخليج تحسباً لأي هجوم برتغالي محتمل.

ثالثاً: مواصلة الجهاد إلى ساحل شرق إفريقية

والهجوم على موزمبيق وبته حتى وفاة الإمام سلطان بن سيف

رأى الإمام (سلطان بن سيف) ضرورة مهاجمة قلعة (موزمبيق) وتدميرها، ليتحول اعتماد الوجود البرتغالي في القسم الشمالي من ساحل شرق إفريقية وبخاصة قلعة (يسوع) في (ممباسة) بالذات على مركزهم الرئيس في (جوا) على ساحل الهند الغربي، وبذلك يكون قد حقق هدفين: **الأول:** إطالة خطوط التموين البرتغالية الذي يتعين عليها أن تقطع المسافة ما بين ساحل شرق إفريقية وساحل الهند الغربي وهي مسافة بعيدة إذا ما قورنت بالمسافة بين (موزمبيق) و (ممباسة) (٧٤)، **والثاني:** أن الأسطول البرتغالي الذي عليه أن يبحر من (جوا) لا يتسنى له الإبحار في أي وقت، ولكن عليه أن ينتظر هبوب الرياح التي تمكنه من الإبحار إلى ساحل شرق إفريقية، وهذا وقته معروف خلال شهور السنة، ويكون عرضة للهجوم عليه من البحرية العمانية وهو في طريقه (٧٥).

ولقد برهنت هذه الحملة للبرتغاليين أنهم أمام خصم قوي، بالأمس هاجم قاعدتهم في (ديو) على ساحل الهند الغربي، واليوم يهاجم مركزهم

---

(٧٤) Strandes, J., op. cit, p. 231.

(٧٥) Warner, A., A Swahili History of pata, J. A. H, No. 14, (January 1914) , p. 166.

في (موزمبيق)، كما برهنت للبرتغاليين أيضاً أن السياسة العمانية تجاه ساحل شرق إفريقية سياسة ثابتة، وأنهم يسعون بجدية وعزم على رفع الظلم والطغيان عن إخوانهم المسلمين هناك، وفي اعتقادي أن الحملة العمانية على (موزمبيق) هي بمثابة رد على بعض المؤرخين والباحثين الذين يصفون الجهاد العماني ضد البرتغاليين بأنه حرب في سبيل التجارة، فإذا كان ممكناً قبول ذلك إلى حدٍ ما في الهند فإنه من المستحيل أن ينطبق ذلك على ساحل شرق إفريقية، لأنه – كما ذكرنا – بإمكان العمانيين أن يزاولوا التجارة مع تلك المناطق دون حرب.

وبعد هذا فإن الشيء الذي يمكن قوله هو أن الحملات العمانية على ساحل شرق إفريقية وإن لم تكن نتائجها حاسمة إلا أنها تعطي تأكيداً للأهالي هناك على عزم العمانيين المضي في جهاد البرتغاليين وطردهم من الساحل، كما أنها تذكي روح المقاومة والجهاد لدى السكان هناك.

وقد أدت تحركات الأسطول البرتغالي في الخليج إلى عرقلة تحرك القوات العمانية في ساحل شرق إفريقية، فقد دأب البرتغاليون في تلك الفترة على إرسال أسطول إلى الخليج في الوقت الذي يرون فيه حملة عمانية متوجهة إلى ساحل شرق إفريقية، الأمر الذي يضطر القيادة العمانية – أحياناً – إلى العودة إلى عمان قبل استكمال مهامها.

ويتضح ذلك من الحملة العمانية على (موزمبيق)، حيث جاء الرد البرتغالي متزامناً معها، وذلك عندما أرسل البرتغاليون أسطولاً إلى الخليج بقيادة (كرينمو مانويل CeronimoManoell) مكوناً من عشر قطع بحرية، واجتاز هذا الأسطول ميناء (جمبرون) على الخليج العربي(٧٦) متوجهاً إلى (كونج)، ومن (مسقط) تحرك أسطول عماني واتجه إلى (جمبرون) بحثاً عن الأسطول البرتغالي، وما إن تأكدوا من عدم وجود أحد فيها من البرتغاليين حتى غادروا، وتقابل الأسطولان العماني والبرتغالي في الممرات البحرية القريبة من (كونج) (٧٧).

---

(٧٦) حالياً اسمها بندر عباس تقع جنوب إيران للمدينة موقع إستراتيجي مهم لكونها تطل على مضيق هرمز. ملحق (٢) .

(٧٧) (IOR) , G/36/105 (19045) , pp. 112-114-118 , Letters Gombroon to surat 27 March 1669.

وقد وصفت المصادر الإنجليزية ما حدث، بأنها معركة دموية سقط فيها حوالي خمسمائة قتيل من العمانيين، في الوقت الذي فقد فيه البرتغاليون عدداً من رجالهم، ولكن انسحب العمانيون مهددين بالانتقام، كما عاد الأسطول البرتغالي إلى (جوا)، وبدأوا على الفور بإعداد أسطول كبير لمهاجمة (مسقط)(٧٨).

وتعتبر تلك المعركة من أكبر المواجهات المكشوفة بين الجانبين، التي استمرت حوالي ثلاثة أيام، ولم يحرز أي منهما نصراً حاسماً على الآخر، ولو أن بعض المصادر تشير إلى أن كفة البرتغاليين كانت هي الأرجح، ويعزون ذلك إلى انسحاب الأسطول العماني من ساحة المعركة أولاً، كما يذكرون بأن القائد البرتغالي عاد إلى (جوا) منتصراً(٧٩)، بينما تشير بعض المصادر العمانية إلى أن الأسطول العماني حقق نصراً كبيراً في (كونج)، ويأتون على ذكر تلك المعركة دائماً، كما أن الإمام (سلطان بن سيف) يأتي على ذكرها من خلال مراسلاته، وأيضاً الشعراء العمانيون يتغنون بها في مناسباتهم(٨٠).

خلال فترة الغياب العماني عن الساحل، وهي الفترة التي قضاها العمانيون بمطاردة البرتغاليين قبالة السواحل اليمنية، ظل ساحل شرق إفريقية في ثورة عارمة، وتزعم كل من أهالي (ممباسة) و(بتة) تلك الثورة، وساندهما كل من مدن (لامو – سيو – ماندا) (٨١).

---

(٧٨) (IOR) . G/36/105(19045) , p. 176, Letter Gombroon to surat 26 November 1669;

مايلز، المصدر السابق، ص١٩٥.

(٧٩) المصدر نفسه، ص١٩٥؛ صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي، (دراسة مقارنة) ، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج٤، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص١٠١؛

Bathurst, R. D., The yarubi Dynasty of Oman, Submitted for the Degree of Doctor of philosophy , Linacre College, (Oxford, 1967) , pp. 125- 26.

(٨٠) السالمي، المصدر السابق، ج٢، ص٥١.

(٨١) رودلف سعيد رويتي، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي، ١٧٩١ – ١٨٥٦، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة البصرة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م،

وفي الوقت الذي شهدت فيه تلك المناطق غياب الأساطيل البرتغالية لإنشغالها بمحاولة استرداد (مسقط)، ومواجهة العمانيين في سواحل جنوب الجزيرة العربية، وشئون الخليج، فإن مدن ساحل شرق إفريقية لم تستطع تخليص نفسها من القبضة البرتغالية، صحيح أن بعض المدن مثل (بتة – سيو – لامو) استطاعت التخلص إلى حد ما من نفوذ البرتغاليين عليها، إلا أنها ظلت ضعيفة ومعرضة لانتقام برتغالي في أية لحظة؛ نظراً لافتقارها إلى القوة العسكرية(٨٢).

والواقع أنه طالما أن الحامية البرتغالية في (ممباسة) موجودة فقد ظلت مصدر تهديد لكل من أراد الخروج عن طاعة البرتغاليين، ورغم عدم احتفاظها بالقوة والهيبة السابقة إلا أن مدن الساحل ما زالت تفتقر إلى المساعدات العمانية.

أصبح الموقف بعد نهاية أحداث السواحل الجنوبية للجزيرة العربية، وزوال التهديد البرتغالي للعاصمة العمانية كالتالي: بالنسبة للعمانيين فقد خرجوا من ذلك الصراع أقوى مما كانوا عليه؛ نظراً للمكاسب العسكرية والاقتصادية التي حصلوا عليها، فالمكاسب العسكرية تمثلت بتأمين الطرق الملاحية التي يسلكها أسطولهم العسكري والتجاري من وإلى ساحل شرق إفريقية والبحر الأحمر، كما أدى استيلاؤهم على بعض السفن الحربية البرتغالية إلى دعم ذلك الأسطول وتقويته وخاصة المدافع الضخمة، والكميات الكبيرة من البارود، وأيضاً انحسار التهديد البرتغالي عن (مسقط) بعد عجزه عن السيطرة عليها(٨٣).

أما المكاسب الاقتصادية فقد تمثلت بالغنائم التي حصلوا عليها نتيجة حربهم مع البرتغاليين، سواء بالاستيلاء على سفنهم التي تحمل

ص٩٠ – ٩١؛ السيار، المرجع السابق، ص٩٨.

(٨٢) Warner, A., op. cit, p. 278.

(٨٣) السالمي نور الدين عبد الله محمد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، صححه وعلق عليه أبو إسحاق إبراهيم طفيش الجزائري الميزابي، ج٢، مطبعة الشباب، ط٢، القاهرة، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، ص٥٣ – ٥٤؛ صلاح العقاد، المرجع السابق، ص٩٨ – ٩٩؛ وليد جرادات، الأهمية الإستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة، ط١، الدوحة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص١٠٩.

البضائع ومصادرتها، أو سفن المتعاونين معهم، أو بالهجوم على مراكزهم التجارية، التي تضم مستودعات لشحن البضائع مثل الهجوم على (بمباي) عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م، وعلى (ديو) عام ١٠٧٩هـ/ ١٩٦٨م، وأيضاً على (باسين) عام ١٠٨٤هـ/ ١٦٧٤م، إضافة إلى توفير الحماية لتجارتهم في الخليج والمحيط الهندي(٨٤). ولاشك أن تلك المكاسب قد مكنتهم من استمرار عملية الجهاد ضد البرتغاليين.

أما البرتغاليون فقد أدى كبح جماحهم قبالة السواحل الجنوبية للجزيرة العربية والخليج إلى زيادة ضعفهم، حيث لم يستطيعوا الحصول على أي نفوذ في تلك المناطق إضافة إلى فشلهم في السيطرة على الطرق الملاحية المؤدية إلى ساحل شرق إفريقية، وهي المنطقة الوحيدة التي كانوا يتمتعون فيها بنفوذ كبير من خلال قلاعهم وحامياتهم العسكرية(٨٥).

ولذا نراهم بعد أن يئسوا من تحقيق أي نفوذ لهم في البحر العربي سواء عسكرياً أو تجارياً، الذي تواكب مع إخفاقهم المتكرر في الوصول إلى (مسقط)، نراهم يهبون مسرعين إلى تدعيم سلطاتهم ونفوذهم في ساحل شرق إفريقية بناء على تعليمات جديدة ومشددة وصلت إليهم من ملك البرتغال(٨٦).

ويبدو أنهم بذلك حاولوا إنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد خسارة نفوذهم الكبير في آسيا، حيث خسروا نفوذهم في جنوب شرق آسيا على يد الهولنديين، كما خسروا معظم نفوذهم في شبه القارة الهندية على يد الإنجليز والهولنديين، وأيضاً خسروا نفوذهم في الخليج على يد العمانيين والإنجليز والهولنديين، ولم يتبق لهم في تلك المناطق سوى نقط تجارية غير مؤثرة باستثناء مركز حكومتهم في (جوا) على ساحل الهند الغربي(٨٧).

---

(٨٤) Low, C.R., History of Indian navy 1613 – 1863 , vol.1 (London, 1877) , p. 377 ; Coupland, R., op. cit, pp. 65-6-7.

(٨٥) Warner, A. op. cit, p. 292.

(٨٦) Fryer, J., New Account of East India and Persia being Nine years Travels 1672 – 1681, ed W. Crook, Hakluyt Society , vol2, (London, 1915) , p. 338.

(٨٧) محمود علي الداود، تاريخ العلاقات الهولندية في الخليج العربي، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، العدد

لذا ففي ربيع الأول عام ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م أرسل البرتغاليون أسطولاً يتكون من خمس عشرة سفينة من النوع الكبير وبعض السفن الصغيرة، باتجاه الخليج وذلك لردع العمانيين، وكان هذا الأسطول يعتمد عليه في تسيير حملة مهمة ضد ساحل شرق إفريقية في السنة نفسها(٨٨). وكان تحت قيادة نائب الملك المعين حديثاً "بدروداالميداPedro De Almid" الذي صدرت إليه التعليمات من ملك البرتغال بالتوجه إلى ساحل شرق إفريقية، وقد شددت تلك التعليمات على ضرورة أن تكون أولوية الاهتمام لشرق إفريقية، لتدعيم الوجود البرتغالي هناك، خشية فقدان التجارة البرتغالية بين ساحل شرق إفريقية والهند وضياعها إلى يد الآخرين، ومن ثم تأمين الطريق المؤدي إلى (لشبونة)، كما أكد الملك لنائبه بأنه لن يتحقق ذلك ما لم يتم استعادة البرتغاليين لمركزهم السابق في الساحل وإحكام قبضتهم عليه(٨٩).

وفي تقديري أنه لم يكن أمام البرتغاليين من خيار في تلك الفترة سوى إحكام قبضتهم على ساحل شرق إفريقية قدر استطاعتهم، فهو يمثل الملاذ الوحيد لهم والبعيد عن أعدائهم وبخاصة العمانيين والهولنديين، ولهم فيه قلاع ما زالت قوية، كما يمثل لهم أيضاً حلقة الوصل الآمنة فيما بين (لشبونة) والهند، إضافة إلى مقدراته الاقتصادية، وفوق ذلك كله فإن السلطة البرتغالية العليا كانت تدرك أن الطريق أصبح الآن مفتوحاً للقوات العمانية بالتوجه إلى تلك المناطق، وكذلك السخط والانتفاضة المتأججة في مدن الساحل ونداءاتهم المتكررة إلى عمان لمساعدتهم.

وعليه فإن (بدروداالميدا) لم يترك مجالاً للتسلح إلا طرقه، وأحاط نفسه بكل القوات المتوفرة، وغير وجهة أسطوله إلى ساحل شرق إفريقية، وعند وصوله إلى هناك وضع تعزيزات في (ممباسة)، كما وُضعت تعزيزات في (موزمبيق)، وفي رجب ١٠٨٩هـ/ أغسطس ١٦٧٨م وصل الأسطول البرتغالي إلى (فازا) واتخذها قاعدة انطلاقه

الثالث، ١٣٨٤هـ/ نوفمبر ١٩٦٤م، ص٢٥٣- ٢٥٤.

(٨٨) Fryer, J., op. cit, vol. II, p. 338.

(٨٩) (IOR) . I/3/141, Documentos. 156, fol, 481, p. 7 , Letter king to the viceroy 2 January 1978.

للسيطرة على المدن والقرى الأخرى، ويعود ذلك إلى محالفة أمير (فازا) لهم(٩٠)، وفي هذه الأثناء وصلت إمدادات برتغالية من (جوا) بعدها قاتلت القوات البرتغالية على الشاطئ، وتم نشر المزيد من القوات في معظم أجزاء الساحل، كما تم الهجوم على (سيو) وأسر حاكمها، ومن ثم ألقي القبض على كل من حاكم (لامو) وحاكم (ماند) بعد أن تم تدمير البلدتين(٩١).

وبما أن (بتة) كانت تتزعم تلك المدن بالثورة على البرتغاليين في تلك الأثناء، كما أنها قد قامت بمساندة العمانيين في الهجوم الذي شنوه على (موزمبيق)، فقد حشد لها البرتغاليون قوة كبيرة شقت طريقها إلى المدينة، وبعد مدة من الحصار استطاعت السيطرة عليها، وتم إحراقها ومن ثم أسر حاكمها، ووضع مع كل من حكام (سيّو) و(لامو) و(ماندا) حيث تم إعدامهم(٩٢). ويُذكر أن (داالميدا) قد انتهج بذلك أسلوب اتسم بالقمع والوحشية من قتل وحرق، وإهانة للمسلمين وتدنيس مساجدهم وهدمها، وكذلك نهب الثروات ومصادرة الأملاك(٩٣). ولم ينته العام إلا وقد أوشك (دالميدا) على فرض سلطة مطلقة على جميع أجزاء الساحل.

لكن قبل أن يتمكن الأسطول البرتغالي من توسيع عملياته العسكرية على كافة أجزاء الساحل فوجئ بقدوم أسطول عماني إلى الساحل وذلك في أواخر عام ١٠٨٩هـ/ يناير ١٦٧٩م بقيادة (محمد بن مسعود الصارمي)، وكان الإمام (سلطان بن سيف) قد أرسل في مطلع عام ١٠٨٩هـ مجموعة من العمانيين برئاسة (سعد بن سعدي البلوشي) إلى ساحل شرق إفريقية، لتنظيم عمليات المقاومة، وليكون ضابط اتصال بين

---

(٩٠) Martin, F. A. Memoirs de FrencoisMertinFondateurdepondichery 1665- 1696, vol2, (paris, 1931- 1934) ., p. 175.

(٩١) Strandes, J., op. cit, p. 231- 32.

(٩٢) كريكمان، جي، المرجع السابق، ص٢٩٠؛ السيار، المرجع السابق، ص٩٨.

(٩٣) السيار، المرجع السابق، ص٩٨.

الحكومة العمانية وحكام المدن هناك، إضافة إلى رصد تحركات البرتغاليين(٩٤).

وقد وصلت السفن العمانية إلى الساحل وأخذت طريقها إلى مدخل ميناء (بتة)، ورغم قوة البرتغاليين الظاهرة إلا أن القوة العمانية استطاعت الرسو والنزول إلى البر، حيث كان هدفهم شن هجمات على المراكز والجنود البرتغاليين في الأماكن التي احتلوها، وأن يشكلوا مع السكان المحليين قوة يصعب على البرتغاليين السيطرة عليها(٩٥).

لم تمض أيام قليلة حتى بدأ الجنود العمانيون يساعدهم السكان المحليون بشن هجمات على المواقع البرتغالية، تساندهم في ذلك مدافع سفنهم، وركزوا جهودهم على (بتّة)، وتشير المصادر إلى أن الحرب بين العمانيين والأهالي من جهة وبين البرتغاليين من جهة أخرى حول السيطرة على (بتة) قد جرت على نطاق واسع، حيث استمرت حوالي ستة أيام، أدرك البرتغاليون خلالها أنهم يواجهون ضغطاً عنيفاً، نتج عنه تحرير (بتّة) وإجلاء البرتغاليين عنها، ثم هاجمت القوات العمانية (فازا) ودخلت البلدة، وأُجبر البرتغاليون بعد ذلك على الانسحاب والهرب إلى (موزمبيق) عن طريق البحر، حيث مات قائد الحملة ونائب الملك (بدرودالميدا) بعد ذلك بأربعة أسابيع(٩٦).

وبهذا أخفقت الحملة البرتغالية عسكرياً، واتضح ضعفهم وعدم قدرتهم في المحافظة على وجودهم هناك، وفي الوقت الذي قاموا فيه بعملية نهب على نطاق واسع للمدن الإسلامية، وحصلوا على ثروات وبضائع كبيرة تم إرسالها إلى (لشبونة) إلا أن إخفاق هذه الحملة عسكرياً برهن على قرب نهايتهم(٩٧). في المقابل فإن العمانيين قد أدركوا بعد

---

(٩٤) Martin, F. A., op. cit, vol. II, p. 175 ;

السيابي، المرجع السابق، ج٣، ٢٤٦.

(٩٥) Strandes , J., op. cit, p. 232.

(٩٦) السالمي، المصدر السابق، ج٢، ص٦٣ – ٦٤؛

Warner, A., op. cit, p. 297.

(٩٧) أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي من مطلع الإسلام حتى الآن، حصاد ندوة الدراسات العمانية،

نجاحهم في هذه الحملة مدى الوهن الذي تعانيه القوة البرتغالية، ولذا يتعين عليهم مضاعفة جهدهم للإجهاز كلية على الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية.

لقد كانت تلك الحملة أو معركة (بتة) هي آخر حملة في عهد الإمام (سلطان بن سيف الأول) حيث توفي في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ذي القعدة عام ١٠٩٠هـ/ الموافق التاسع عشر من ديسمبر ١٦٧٩م، وتختلف المصادر العمانية في تحديد تاريخ وفاته(٩٨).

وتجدر الإشارة إلى أن الحملات العمانية إلى ساحل شرق إفريقية في عهد الإمام (سلطان ابن سيف الأول) كانت على هيئة هجمات خاطفة باستثناء حصار (ممباسة) عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م الذي دام خمس سنوات، الأمر الذي أدى إلى عدم تحقيق نتائج مستديمة. وفي اعتقادي أن ذلك يعود في المقام الأول إلى تعدد ميادين القتال بين العمانيين والبرتغاليين، حيث نجدها تارة في ساحل شرق إفريقية، وتارة في الخليج العربي، وأخرى في السواحل الجنوبية للجزيرة العربية والبحر الأحمر، وأيضاً في ساحل الهند الغربي، ويضاف إلى ذلك حداثة تكوين الأسطول البحري العماني في وقت لا يزال الأسطول البرتغالي قادراً على التقاط أنفاسه واحتفاظه ببعض جوانب التفوق أحياناً، علماً بأن هذا التفوق بدأ بالتلاشي التدريجي في أواخر عهد الإمام (سلطان)، وفوق ذلك كله استمرار تهديد البرتغاليين (لمسقط) الأمر الذي أجبر العمانيين في أكثر الأحيان على الاحتفاظ بجزء من أسطولهم الحربي لحماية الموانئ العمانية في الخليج وبخاصة (مسقط) ولا ريب أن الإمام (سلطان) كان قد جعل من عمان العامل الحاسم في شئون ساحل شرق إفريقية.

والواقع إن السياسة المتوازنة التي انتهجها الإمام (سلطان بن سيف) تجاه كل من إنجلترا وهولندا قد آتت ثمارها، حيث أعطت

ج٢، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٤٩؛ السيار، المرجع السابق،= ص٩٨؛ عامر الحجري، تاريخ العلاقات العمانية الأفريقية بداية التواجد العماني في شرق إفريقية، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ج٢، الدوحة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٦٧م، ص٧٨٥.

(٩٨) السالمي، المصدر السابق، ج٢، ص٤٢؛ الأزكوري، المصدر السابق، ص١١٠.

العمانيين فرصة لإرسال أساطيلهم لنجدة المسلمين في ساحل شرق إفريقية ومطاردة البرتغال. وهكذا توفي الإمام (سلطان بن سيف الأول) مخلفاً وراءه دولة مزدهرة ومكتملة البنيان في مختلف النواحي العسكرية والاقتصادية والسياسية.

رابعاً: إرسال أسطول عماني إلى ساحل شرق إفريقية وحصار ممباسة ثم سقوطها عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨ م وطرد البرتغالين من بقية أجزاء الساحل وردود الفعل البرتغالية على سقوط ممباسة

في تلك الأثناء وفي خضم النجاحات التي حققها العمانيون في الخليج والمحيط الهندي، وأيضاً في ظل الغياب العماني عن ساحل شرق إفريقية وصل إلى عمان وفد من سكان الساحل لتقديم الولاء للإمام (سيف بن سلطان) ولطلب المساعدة منه ضد البرتغاليين وقد كان الوفد يمثل بعض حكام المدن وأعيانهم وشيوخ القبائل السواحلية والإفريقية، ويذكر أن الإمام قد بث عيونه في تلك المناطق لجمع المعلومات عن البرتغاليين ورصد تحركاتهم، وهذا ما يعطي دلالة على أن شئون الساحل لم تغب عن السلطة العليا في عمان، بل كان العمانيون يتحينون الفرص للانقضاض على البرتغاليين في تلك المناطق[٩٩]، ولا شك أن وصول هذا الوفد قد شكل حافزاً لدى الإمام على مواصلة الجهاد ضد البرتغاليين في تلك المناطق.

لذا فقد خطط الإمام (سيف بن سلطان الأول)، مستفيداً من تماسك الموقف، ومن الدعم الذي وفرته له نجاحاته في الهند ومتشجعاً بموقف أمراء وأهالي ساحل شرق إفريقية ومتأثراً بأحكام الإعدام التي نفذها نائب الملك البرتغالي في (جوا) بالعمانيين والعرب المأسورين لديه، خطط لشن هجوم حاسم على المواقع البرتغالية في ساحل شرق إفريقية، مع التركيز على قلعة (يسوع) في (ممباسة) باعتبارها محور الارتكاز للنفوذ

(٩٩) رودلف، المرجع السابق، ص٩٠؛ المعمري، المرجع السابق، ص٦٦.

البرتغالي في شمال الساحل، فإذا أمكن السيطرة عليها فإن ذلك سيكون مفتاحاً للسيطرة على بقية أجزاء الساحل (١٠٠).

أسندت قيادة تلك الحملة إلى (مبارك بن غريب المزروعي)، ووصلت إلى ساحل شرق إفريقية في عام ١١٠٨هـ / الثالث عشر من مارس ١٦٩٦م، ولكنها لم تتعجل فرض الحصار على (ممباسة) حال وصولها، بل اتجهت إلى كل من (لامو) و (بتة) حيث أنزلت مجموعة من المحاربين في كلا المدينتين، وهذا دليل على التأييد القوي الذي يحظى به العمانيون في الساحل رغم المحاولات البرتغالية بصرف السكان عنهم، وقد اتجهت الحملة بعد ذلك إلى (ممباسة) حيث ألقت السفن مراسيها في (كيليندياني) مينائها الرئيس(١٠١).

لم يواجه العمانيون في بداية الأمر مقاومة تذكر من البرتغاليين؛ نظراً لضخامة أسطولهم وتمركزه، إضافة إلى أن السفن البرتغالية التي كانت موجودة هناك لا تستطيع مواجهة القوة العمانية دون مساعدة ولهذا انسحبت من الميناء، كما أن العمانيين أيضاً قاموا كما ذكرنا بتعزيز هناك ومنعها من تقديم أية مساعدة للبرتغاليين في (ممباسة) ثم تقدم بعد ذلك الأسطول العماني وفرض حصاراً محكماً على (قلعة يسوع) استمر حوالي ثلاثة وثلاثين شهراً (١٠٢)، كان من الواضح أمام القوات العمانية أن الاستيلاء على (قلعة يسوع في ممباسة) من الأمور الصعبة ولما كان الهدف هو احتلال القلعة ومن ثم الانطلاق نحو كافة أجزاء الساحل فقد تعين عليهم اتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة لتحقيق هذا الهدف، ومنها على ما يبدو عزل الحاميات البرتغالية الموجودة في المدن الأخرى عن القلعة المحاصرة وعدم الاستعجال في مهاجمة القلعة بل فضلوا حصارها باتباع حرب النفس الطويلة.

---

(١٠٠) Bathurst, R.D., op.cit, p.143.

(١٠١) مبارك بن علي الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسة، ترجمة عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، سلسلة تراثنا،العدد التاسع، مسقط،١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٤١٤؛ المغيري، المرجع السابق، ص١٩٢.

(١٠٢) Coupland, R , op.cit, pp.67-68.

وقد أخفقت خلال مدة الحصار الطويلة محاولات البرتغاليين المتعددة لكسره، وعند إتمام عملية الحصار بدت مدافع السفن العمانية تقصف المناطق المحيطة بالقلعة في محاول لعزلها والحيلولة دون وصول الإمدادات إليها، مما اضطر البرتغاليين وأعوانهم من الوطنيين والسواحليين وبعض المرتزقة الذين يزيدون على الألفين اضطروا إلى اللجوء إلى القلعة وانحصروا فيها، ومن ثم سيطرت القوات العمانية على الممر الوحيد الذي يربط القلعة بالمدينة، وبذلك ازداد موقف المحصورين داخل القلعة حرجا (١٠٣)، وأصبحت مسألة تقديم مساعدة لهم بالغة الصعوبة إن لم تكن معدومة.

لم يستطع الأسطول البرتغالي الذي جاء من (جوا) بعد وصول القوات العمانية بوقت قصير أن يفعل شيئاً وبخاصة بعد السيطرة على ميناء (كيليندياني) الاستراتيجي، فاضطر هذا الأسطول بعد مدة إلى الإبحار نحو (موزمبيق) ومن ثم محاولة العودة ثانية إلى (ممباسة) مع الرياح الجنوبية الغربية، وفي هذه المرحلة كان وضع المحاصرين داخل القلعة يائساً حيث أخذت المؤن تتناقص (١٠٤).

لقد ازداد وضع المحاصرين داخل القلعة سوءا خاصة بعد وفاة قائد الحامية البرتغالي (جوادي رودريغر Jaoa De Rodriguer) في أكتوبر ١١٠٨هـ /١٦٩٦م مما أضعف الروح المعنوية لدى أفراد الحامية، ومما له دلالته وقوع حالات هروب عديدة من صفوف البرتغاليين ومعاونيهم، وتناقص عدد الموجودين داخل القلعة من حوالي ٢٥٠٠ إلى ١٥٠٠ رجل ولم يبق من الجنود البرتغاليين سوى خمسين أو يقلون عن ذلك وفي نوفمبر من العام نفسه تلقى العمانيون تعزيزات من (بته) ممثلة بوصول أحد عشر مركباً من مراكب (الدهو) تحمل عدداً من العرب وعدداً كبيراً من السكان المحليين (١٠٥)، وأمام كل ذلك فلم يشن العمانيون الهجوم ليبلغ

---

(١٠٣) Grenvile, F, Select Documenst, The East African Coast, (Oxford, 1962) , p.142 ; السيار، المرجع السابق، ص١٠٠.

(١٠٤) Bathurst, R D , op.cit p.143.

(١٠٥) Strandes, J. op.cit , p251 ;

مداه من أنه من غير المتوقع أن تصل أية إمدادات برتغالية قبل حلول موسم هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية.

وأمام التعزيزات البرتغالية المتباطئة فإن العمانيين يساندهم أهالي الساحل يعود دائماً إلى تبديل قواتهم ودعمها، فقد وصلت إليهم تعزيزات في عام ١١٠٩ هـ / الثامن عشر من فبراير ١٦٩٧، تتألف من سفينتين من نوع (جالوت) من الهند محملتين بالذخيرة، وبعد شهر من ذلك أي في مارس وصلت تعزيزات عمانية أخرى حيث وصلت ثلاث سفن محملة بالمقاتلين والمؤن قادمة من (مسقط) (١٠٦).

وبرغم إحكام الحصار على قلعة (يسوع) في (ممباسة) من قبل العمانيين إلا أنه يلاحظ أن البرتغاليين رغم مضي أكثر من سنة على الحصار إلا أنهم لم يدفعوا بقوات كبيرة إلى هناك لفك الحصار عن القلعة، وهذا في تقديري راجع إلى أن البرتغاليين قد لا يستطيعون توجيه كل ما لديهم من قوات إلى هناك خشية تعرض مراكزهم في ساحل الهند الغربي إلى هجمات قد يشنها العمانيون أو غيرهم، لذا فقد اضطروا إلى الاحتفاظ بجزء من قواتهم هناك وأيضاً بجزء آخر في الخليج لحماية تجارتهم، وليس من المستبعد أيضاً أن احتفاظهم بهذه القوات وعدم إرسالها إلى شرق إفريقية قد يشكل عامل ردع للعمانيين أيضاً لكي لا يدفعون بكل قواتهم إلى إخوانهم في تلك المناطق، وبالرغم من أهمية ساحل شرق إفريقية بالنسبة للبرتغاليين وفي هذه المرحلة بالذات، ورغم ما تعانيه حاميتهم في (ممباسة) إلا أنهم لم يطلبوا تعزيزات عسكرية من (لشبونة) حتى ذلك الحين رغم مضي هذه الفترة الطويلة من الحصار وفشل المحاولات المتكررة لكسره، وربما ذلك راجع إلى: إما استهانتهم بالبحرية العمانية، أو رغبة نائب الملك بالهند في عدم إظهار ضعفه وفشله بالتصدي للعمانيين أمام الملك البرتغالي.

ولقد مضي الحصار بطيئاً ومتثاقلاً دون أن يتقدم أي من الجانبين على أخذ زمام المبادرة بشن هجوم، ومع نهاية شهر أغسطس من العام

أحمد شلبي، المرجع السابق، ص٥١.

(١٠٦) Bathurst, R D , op.cit p.144.

نفسه مات قائد القلعة، وآلت القيادة بعد ذلك مؤقتاً إلى أمير (فازا)، وحينئذ قام حاكم (موزمبيق) بإرسال نجدة إلى (ممباسة)، ولكنها لم تستطع أن تقدم أي شيء فاتجهت إلى (زنجبار) (١٠٧)، ولتجنب التوبيخ الذي قد يوجه إليه من (جوا) قام حاكم (موزمبيق) بإرسال نجدة أخرى إلى (ممباسة) وتمكن هؤلاء مع أولئك الذين تلكأوا في (زنجبار) من حشد قوة كبيرة دخلت إلى ميناء (ممباسة) في سبتمبر من العام نفسه، ونشب قتال ضار تحت قيادة (جوزيف دي بريتوJoseph De Brito) الذي أصبح حاكماً على البرتغاليين، بينما احتفظ أمير (فازا) بلقبه قائداً وحاكماً للقلعة(١٠٨).

وقد واكب الجهود البرتغالية العسكرية لفك الحصار جهود دبلوماسية على أعلى المستويات فقد قامت (لشبونة) في أواخر عام ١١٠٨هـ / أكتوبر ١٦٩٦م بإرسال (جريجوريو فيدالجو Gergorio Fidalgo) إلى ملك فارس (سلطان حسين ١١٠٦ -١١٣٥خـ / ١٦٩٤-١٧٢٢م) للاتفاق معه بهدف تكوين حلف لمهاجمة العمانيين الأمر الذي سيؤدي حتماً حسب وجهة النظر البرتغالية- إلى تخفيف الضغط العسكري العماني عن ساحل شرق إفريقية وإبعاد شبح سقوط قلعة (يسوع في ممباسة) ولكن مهمة ذلك المبعوث لم تنجح (١٠٩).

كما حاول البرتغاليون أيضاً الضغط على العمانيين وذلك بتطبيق سلاح العقوبات الاقتصادية على عمان محاولين في ذلك استغلال عقدهم معاهدات مع أمراء بعض الولايات الهندية، ففي عام ١١٠٨هـ / سبتمبر ١٦٩٦م وافق حاكم (كلكتا) على أن يوقف السفن التي تتاجر مع (مسقط)، أو مع أي ميناء من الموانئ التابعة للعمانيين، وفي عام ١١٠٩هـ / أواخر عام ١٦٩٧م عقد اتفاقية بين مندوب حاكم مقاطعة

---

(١٠٧) Eilot, C., op.cit. pp.18-19.

(١٠٨) Strandes, J. op.cit., p.260:

أحمد شلبي، المرجع السابق، ص٥١.

(١٠٩) Achronicle of The Carmelites, in Persia and the Papal Mission of the XVIIIth and XVIII thCanturies, vol II, (London, 1939) , p.477.

(سوندا) الهندية ونائب الملك البرتغالي في (جوا) وكان من بين شروطها أن لا يسمح حاكم المقاطعة الهندي لأية سفينة بالذهاب إلى (مسقط) سواء للتجارة أو لأي غرض آخر (١١٠)، والواقع أن إرسال المندوبين إلى البلاط الفارسي أو تطبيق الحظر الاقتصادي لوضع العراقيل أمام التجارة العمانية مع الموانئ الهندية، إنما كان ذا جدوى ضئيلة طالما أن العمانيين كانوا يملكون آنذاك أقوى أسطول في المنطقة.

وعلى الصعيد العسكري كرر البرتغاليون محاولاتهم لفك الحصار المضروب على (ممباسة) ففي منتصف عام ١١٠٩هـ / نوفمبر ١٦٩٧م أرسل البرتغاليون من (جوا) بعض السفن الحربية إلى (ممباسة) واستطاعت التسلل إلى القلعة وإنزال بعض الجنود والمؤن وأخذت معها بعض من بقي على قيد الحياة من الجنود البرتغاليين المحاصرين (١١١)، واعتبر قائد هذه الحملة (فارنسكوبيريرا دي سلفا Francisco Pereira De Solva) أن مهمته بذلك قد انتهت وقرر العودة، ورفض مطلب المحاصرين الذين أوضحوا له بأن بإمكان أسطوله هذا مواجهة القوات العمانية ولو لتخفيف الضغط على القلعة، ولكنه رفض وأبحر في يناير عام ١٦٩٨م إلى (زنجبار) ومنها إلى (جوا)(١١٢).

وبذلك يتضح أن القادة البرتغاليين غير راغبين في استثمار الفرص التي تلوح لهم أحياناً لتحقيق شيء ما أمام هذا الحصار، وقد يكون ذلك فرصة لهم لإنقاذ القلعة أو تأخير سقوطها على الأقل، ويلاحظ أن قادة الحملات البرتغالية التي أرسلت لإنقاذ القلعة كانوا غير جادين في تنفيذ ما أوكل إليهم من مهام، أما لجبنهم أو لعدم ثقتهم بما لديهم من قوات وبالمقابل نجد إصراراً عجيباً وتصميماً واضحاً من العمانيين على تحقيق هدفهم، ويبرهن على ذلك طول مدة الحصار التي فرضوها على قلعة (يسوع في ممباسة).

---

(١١٠) Denvers, F. C, The Portuguese in India, vol2, (London, 1894) ,.371-72.

(١١١) Granville, F, Select Documents, op.cit, p.143 ;

السيّار، المرجع السابق، ص١٠٠.

(١١٢) Bathurst, R.D, op.cit, p.145-46.

كانت السلطات البرتغالية في (جوا) على اطلاع بالحالة البائسة للمحاصرين في (ممباسة) فقد أصاب الحامية الطاعون، وأخذ المحاصرون يموتون بصورة مضطردة سواء من الأوبئة أو من سوء التغذية وبالرغم من ذلك ورغم تناقص عدد المدافعين إلا أنهم أصروا على عدم التسليم، وقد رفضوا عروض التسليم والضمانات التي قدمها العمانيون مع التعهد بتوفير مخرج آمن لهم(١١٣)، ويرجع هذا الإصرار على عدم التسليم في اعتقادي ليس إلى البرتغاليين الذين لم يبق منهم إلا القليل فحسب بل إلى أمير (فازا) وأعوانه من بعض السواحيليين من أهل (فازا) الذين بذلوا جهوداً كبيرة في الدفاع عن القلعة وقد كانوا أوفياء للبرتغاليين مثل ما كان لحاكم (ماليدي) إبان المراحل الأولى للغزو البرتغالي، تدفعهم إلى ذلك مصالحهم الشخصية.

وقد حاول البرتغاليون بعد ذلك التأثير على العمانيين من خلال إزعاجهم في الممرات البحرية ومدخل الخليج، وذلك عندما قامت بعض السفن البرتغالية وعلى رأسها فرقاطتان بالمرابطة في (رأس الحد) عند مدخل الخليج وذلك في أواخر عام ١١٠٩هـ / مايو ١٦٩٨م فأرسل العمانيون بعض السفن العمانية وغيرها من السفن المتوجهة إلى (مسقط) ونشبت بينهما معركة انتهت بهزيمة العمانيين ومقتل قائدهم وعدد كبير من رجالهم، وكانت خسائر البرتغاليين قليلة مقارنة بالخسائر العمانية(١١٤)، والواقع أن هذه الخسارة لم يكن لها أي تأثير على مجرى الأحداث في ساحل شرق إفريقية وظل الحصار مضروباً على (ممباسة) وظلت التعزيزات العمانية تتدفق إلى هناك.

شعر الإمام (سيف بن سلطان الأول) بالضعف الواضح الذي بدأ يعانيه البرتغاليون سواء في ساحل شرق إفريقية أو في مقر حكومتهم في

---

(١١٣) Coupland , R, op.cit, p.69 ;

صلاح العقاد وجمال قاسم، المرجع السابق، ص٣٢.

(١١٤) (IOR) . 1/3/141, Documentos , 439 fol. 271, Letter viceroy to the king , 16 May 1698 ;

لوريمرج.ج، دليل الخليج، القسم التاريخي ج١، ترجمة مكتب الترجمة ديوان حاكم دولة قطر، الدوحة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص١١٧.

(جوا)، واتضح ذلك بفشل كافة محاولاتهم لفك الحصار عن (ممباسة) وضآلتها لذا فقد قام بإرسال عدد جديد من القوات إلى ميدان القتال وقد وصلت التعزيزات العمانية الجديدة عام ١١١٠هـ / أكتوبر ١٦٩٨م حيث تم الإنزال وبوشر بالهجوم النهائي (١١٥) واستمر الهجوم حوالي شهرين تم خلاله السيطرة على اللسان البري الذي يفصل القلعة عن المدينة، كما تم خلاله أيضاً تدمير واجهة القلعة المطلة على البحر التي كان فيها مقر القيادة البرتغالية، وفي التاسع من جمادي الثانية ١١١٠هـ /الرابع عشر من ديسمبر ١٦٩٨م استسلمت الحامية البرتغالية ودخل العمانيون القلعة فاتحين وارتفع بعد ذلك العلم العماني على برج القلعة (١١٦).

وقد أظهر حصار (ممباسة) بأن البرتغاليين لا يملكون الموارد الكافية ولا يتحكمون بالدعم الكافي الذي يمكنهم من خوض الحرب ضد العمانيين وحدهم، وبالتالي هزيمتهم ورغم أن المعارك كانت تنشب بينهما بين الفينة والفينة إلا أنها لم تشهد أية حمية أو شجاعة من البرتغاليين، وعلى العكس فإن العمانيين كانوا يملكون إرادة أكبر وتصميماً أكثر بالإضافة إلى قوة بحرية جيدة وبخاصة في العقود الأربعة الأخيرة من القرن السابع عشر الميلادي.

لقد كان لسقوط قلعة (يسوع) أكبر الأثر في نفوس المسلمين وإظهار تفوق الأسطول العماني على الأسطول البرتغالي، إن سنة ١١١٠هـ / ١٦٩٨م.تعتبر سنة مهمه في ساحل شرق إفريقية ليس فقط من حيث القضاء على السيطرة البرتغالية فحسب بل من حيث أهميتها التي أتاحت للإسلام الفرصة في الانتشار دون أي عقبات بل إن الاستيلاء على (ممباسة) مكن العمانيين من المحافظة على السمة الإسلامية للقسم الشمالي في ساحل شرق إفريقية .

---

(١١٥) Strandes, J, op.cit, pp266-76.

(١١٦) الهنائي، المرجع السابق، ص١٤؛ المزروعي، المصدر السابق ص١٧؛ الأزكوري، المصدر السابق، ص١١٣؛ السالمي، المصدر السابق، ج٢، ص٨٤؛
Strandes, J, op.cit, p.67 ;
جيان، المصدر السابق، ص٣٢٤؛ لوريمر، المصدر السابق، ١١٧.

شدد الإمام (سيف بن سلطان الأول) على ضرورة استثمار هذا الانتصار لطرد كافة الحاميات البرتغالية وتصفية الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية، لذا فقد اندفعت القوات العمانية تساندها قوات أهالي الساحل، واستطاعت تحرير كل من (بمبا، وبته، وكلوة) وطردت البرتغاليين من جميع المواقع والمعسكرات التي كانوا يحتلونها ولم يأت عام ١١١٢هـ /١٧٠٠م إلا وقد سيطر العمانيون على جميع المواقع التي تقع شمال (رأس دليجارو Cape Delgaro) ، كما حاول العمانيون أيضاً مهاجمة (موزمبيق) ، ولكنهم عدلوا عن ذلك (١١٧).

وبعد هذا الجهد أصبحت السيطرة العمانية شاملة وكاملة على القسم الشمالي من الساحل، وبادر السكان هناك بالاعتراف بالسيادة العمانية، وعاد شريان الحياة ينبض من جديد كما عادت الاتصالات بين الخليج وجنوب الجزيرة العربية وساحل شرق إفريقية إلى سابق عهدها، وبدأ الساحل يستقبل زخم الهجرات الجديدة من الجزيرة العربية، كما بدأت مرحلة أخرى جديدة من مراحل انتشار الإسلام هناك.

لم يفقد البرتغاليون الأمل في استرجاع ما كان لهم من نفوذ في ساحل شرق إفريقية، ففي منتصف عام ١١١٠هـ / مطلع ١٦٩٩م تحرك من ميناء (لشبونه) أسطول مكون من خمس سفن تحمل (١٩٠٠) مقاتل لتحقيق هدف محدد هو نجدة (ممباسة) ولكنه لم يصل (موزمبيق) إلا بعد سقوط قلعة (يسوع) وقد رفض الملاحون التوجه إلى (ممباسة) لمحاولة استرجاعها مدعين جهلهم بالساحل وأنه ليس مألوفاً لديهم، وبناء على هذا العذر تم تحويل الحملة حيث اتجهت إلى (جوا)(١١٨) وقد علق نائب الملك

---

(١١٧) ابن رزيق حميد بن محمد، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبدالمنعم عامر ومحمد مرسي، وزارة التراث والثقافة،بعمان، مسقط ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٢٩٥؛ السالمي، المصدر السابق، ج٢، ص٨٤؛

Pearce, F , B , Zanzibar; The Island Metropolis of Eastern Africa (London, 1920) , p87 ;

المغيري، المرجع السابق، ص١٩٥-١٩٧؛ رولاند اوليفر وجون فيج، موجز تاريخ إفريقية، ترجمة دولت أحمد صادق، بيروت، بدون تاريخ، ص٣٩-٤٠.

(١١٨) Strandes, J, op.cit, p.273;

البرتغالي في (جوا) على ذلك قائلاً: "إنه مع وجود الملاحين المدربين والبوصلات وهبوب رياح موسمية مواتية تدفعهم من الخلف باتجاه ممباسة مع ذلك كله فإن الشيء الوحيد الذي كان ينقص هذه الحملة هو الإرادة والعزيمة على بلوغ هدفها المحقق" (١١٩).

وقد ذكر (كيركمان) أن البرتغاليين لم يفقدوا الاهتمام والأمل بالعودة إلى الساحل كما أشار أيضاً إلى أن الطبقات الحاكمة في الساحل ساخطة من وجود النفوذ العماني، وكانوا يبعثون برسائل إلى نائب الملك البرتغالي في (جوا)، وأن تلك المراسلات قد كتبت بلغة عربية ركيكة، ولكنه يذكر أيضاً أن هذه الروايات غير معروفة إلا في المصادر البرتغالية (١٢٠)، والواقع أنه لا يعلم على وجه الدقة طبيعة الأوضاع في ساحل شرق إفريقية خلال تلك الفترة باستثناء ما تذكره المصادر البرتغالية أو من اعتمد عليها، إلا أن المؤكد أن (ممباسة) وهي مفتاح القسم الشمالي للساحل ظلت على ولائها للعمانيين وظل الولاة يعينون عن طريق السلطة في عمان حتى نهاية النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي.

وحتى أوائل عام ١١٢٢هـ /١٧١٠م لم يقم البرتغاليون بأي عمل من شأنه إعادة سيطرتهم على ساحل شرق إفريقية رغم ما أثير من أن بعض أمراء الساحل قد وجهوا لهم الدعوة أو طلبوا منهم العودة، إلا أنه في هذه السنة انتعشت الآمال البرتغالية على إثر ورود وصف للقوة العمانية على الساحل في تقرير جاسوس من (موزمبيق).

ولا يعلم على وجه الدقة مدى حقيقة ما جاء في هذا التقرير ومطابقته للواقع حيث لا نجده إلا في المصادر البرتغالية، وإذا افترضنا أنه صحيح فإن وضع القوات العمانية المنتشرة على معظم أجزاء الساحل تعكس انصراف السلطة العمانية عن شئون الساحل وانشغالها بالأحداث

العقاد وجمال قاسم، المرجع السابق، ص٣٢.

(١١٩) Bathust, R.D, op.cit, p.261.

(١٢٠) كيركمان، المرجع السابق، ص٢٩٦؛

Starndes , J, op.cit, p275.

والمستجدات بالمحيط الهندي والخليج العربي، ولكن الشيء الذي يصعب قبوله هو أنه من غير المعقول أن يتذمر أهالي الساحل من وجود العمانيين في هذه الفترة المحدودة التي أعقبت سقوط (ممباسة) في وقت لم تمارس فيه الإمامة العمانية سلطة مباشرة على الأهالي هناك لكي يتذمروا من العمانيين ويقوموا بدعوة البرتغاليين إلى العودة للساحل وهم الذي قاسوا مرارة السيطرة البرتغالية وتسلطها على مدى قرنين من الزمان. ثم لماذا لم يقدم البرتغاليون في ظل تواضع القوات العمانية على الساحل، حيث لن يكلفهم ذلك كثيراً في ظل ترحيب من الأهالي وقوات عمانية قليلة على حد ما جاء في التقرير، ولكن المؤكد أن أهالي الساحل لا يرغبون بعودة البرتغاليين ولا يعنى الموقف المعارض للعمانيين من أحد أمراء الساحل أن أهالي الساحل جميعهم كذلك، لاسيما وأن والي (ممباسة) معين من قبل العمانيين، وقد برهنت أحداث عام ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م – التي سيأتي ذكرها – على مبالغة ما ورد في التقرير المذكور بخاصة فيما يتعلق بتذمر الأهالي من العمانيين.

ومهما يكن من أمر فقد وصلت هذه الأنباء المشجعة إلى (جوا) في وقت كانت تنطلق من (لشبونه) نصائح متواصلة وحث وتحذير بعدم إغفال أية فرصة تتاح للعودة إلى ساحل شرق إفريقية، وبناءً عليه فقد تشجع نائب الملك آنذاك (دوم رودريجوادا كوستا Dom Rodrigo Da Costa) – وكان قد عين حديثاً – على تجربة دوره فقام بإعداد حملة مكونة من أربع سفن عام ١١٢٢هـ / نوفمبر ١٧١٠م ولكن تم التخلي عن القيام بهذه الحملة فجأة، ويعزو (سترانداز) سبب ذلك بأن البرتغاليين قد اكتشفوا في آخر لحظة عدم وجود مسحوق البارود لديهم (١٢١)، ولكن (ويلش Welch) يذكر أن الاضطرابات بين بعض الفئات والطوائف الهندية باتت تهدد سلامة (جوا) الأمر الذي أجبر البرتغاليين على التخلي عن تلك المهمة، ويذكر أيضاً أن نائب الملك كتب إلى (لشبونه) وأخبرهم أن استعادة

(١٢١) Bathurst, R.D., op.cit, p.276.

(ممباسة) ما هي إلا مسألة صغيرة وتافهة إذا ما قورنت بسلامة وأمن أراضي (جوا) (١٢٢).

والحقيقة أنه إذا أمكننا الأخذ برواية (ويلش) الذي اعتمد فيها على سلسلة طويلة من المصادر البرتغالية فإنه يصعب الأخذ برواية (ستراندار) التي علل فيها أن عدم وجود مسحوق البارود قد حال دون إنفاذ تلك الحملة، إذ لا يعقل أن السفن البرتغالية المنتشرة في الهند وموزمبيق والخليج وبخاصة مركز البرتغاليين في (جوا) تعاني من أهم أداة للحفاظ على أمنهم واستقرارهم لاسيما وأنهم يعانون من كثرة أعدائهم ومهما يكن من أمر فإن كلتا الروايتين تعكسان الوضع المتردي للوجود البرتغالي.

وفي تقديري أن تفوق البحرية العمانية والضعف العام الذي كانت تعانيه البحرية البرتغالية وفساد الإدارة السياسية والعسكرية، وهبوط الروح المعنوية للجنود البرتغاليين، إضافة إلى العجز المالي للإدارة البرتغالية في الشرق كلها أسباب أسهمت بعدم إقدام البرتغاليين على القيام بدور حاسم في ساحل شرق إفريقية بعد سقوط قلعة (يسوع) في (ممباسة) في تلك الفترة.

وفي خضم تلك التطورات توفي الإمام (سيف بن سلطان الأول) في الثالث من رمضان عام ١١٢٣هـ/ الموافق الخامس عشر من أكتوبر ١٧١١م بعد حياة مليئة بالجهاد، ودفن (بالرستاق) (١٢٣)، وقد قال عنه ابن رزيق: "فلم يزل سيف بن سلطان إماماً عادلاً، منصفاً بين الرعية، راداً قويهم عن ضعيفهم، وأذعنت له القبائل من عمان وغيرها من الأمصار، وحارب النصارى في أوطانهم، وأخرج بعضهم من قراهم فاستلم منهم

---

(١٢٢) Portugues and Dutch in South Africa 1641- 1806, (Cape Town, 1951) p. 270.

نقلاً عن:

Bathurst, R. D., op. cit. p. 266.

(١٢٣) الأزكوري، المصدر السابق، ص١١٢؛ المعولي أبي سليمان محمد بن عامر، قصص وأخبار جرت في عمان، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، بدون تاريخ، ص١١٩ – ١٢٠؛ السالمي، المصدر السابق، ج٢، ص٨٥؛ المعمري، المرجع السابق، ص٦٧.

(ممباسة والجزيرة الخضراء (بمبا) وبتة وكلوة)، وغيرها من البلدان وعمّر عمان وأجرى فيها الأنهار، وغرس فيها النخيل والأشجار، وقويت عمان به وصارت خير دار " (١٢٤).

وفي خضم هذه الأوضاع وفي ظل غياب عماني مباشر عن ساحل شرق إفريقية، أتيحت الفرصة للبرتغاليين في العودة إلى الساحل والسيطرة عليه، وذلك عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م.

ساء الأهالي عودة البرتغاليين مرة أخرى، فهبوا في ثورة عارمة بقيادة أهالي (ممباسة)، فتمكنوا بمساعدة قوة عمانية مكونة من أربعمائة رجل تساعدهم في ذلك بعض القبائل الإفريقية تمكنوا من إبادة جميع البرتغاليين خارج قلعة (يسوع) كما سيطروا على الحصن الصغير في (ماكوبا)، وتم طلب مساعدة عاجلة من عمان، كما ثار الأهالي والحكام على طول الساحل في (زنجبار، مافيا، بمبا) وغيرها وأخذوا يطردون البرتغاليين من مناطقهم، ولم يأت عام ١١٤٣هـ/ يناير ١٧٣٠م إلا وقد تمكن الأهالي بمساعدة العمانيين من دحر الحاميتين البرتغاليتين في (ممباسة و بتة) وتم رفع العلم العماني هناك، وتم التخلي نهائياً عن أية أفكار باستعادة (ممباسة) وبقية المواقع على ساحل شرق إفريقية بعد ١٨ شهراً من الاحتلال البرتغالي(١٢٥).ولكنهم عجزوا عن استعادة سيطرتهم لأن أهالي الساحل لا يريدون العودة مرة أخرى إلى سياسة العسف والجور.

ويقول المزروعي في هذا الصدد: "بعد طرد البرتغال من ممباسة سافر إلى عمان شيخ بن أحمد الملندي وموتي غوت بن موانزا الكلنديني موشهال بن نداو التنجائي ومعهم من كل قبيلة من قبائل ممباسة شخص، ومن كل طائفة من طوائف الزنوج مندوب من قبلها، سافر هذا الوفد لعرض ما جرى في ممباسة على الإمام سيف بن سلطان (١٢٦)، ولما

---

(١٢٤) ابن رزيق، المصدر السابق، ص٢٩٥.

(١٢٥) Strandes, J., op. cit, pp. 291- 96 ; Coupland, R., op. cit, p. 68 ;

أحمد شلبي، المرجع السابق، ص٦١.

(١٢٦) المقصود به سيف بن سلطان الثاني.

وصلوا هناك أنزلهم الإمام على الرحب والسعة وأكرمهم غاية الإكرام، وعند رجوعهم جهزهم ونقلهم في ثلاث مراكب وهي كعب الرأس والملكي والفلكي (١٢٧) مع الهدايا الفاخرة والجوائز، وأرسل معهم (محمد بن سعيد المعمري) والياً على ممباسة، وبعد وصولها نزل محمد بن سعيد في القلعة كعادة الولاة قبله، وأباح لأهل ممباسة جميع ما فيها من الأموال التي خلفها البرتغال غنيمة لهم جزاء على جميل صنيعهم باستثناء الأسلحة والبارود"(١٢٨). لقد أدرك أهالي (ممباسة) ضرورة استمرار تبعيتهم لعمان لحمايتهم من البرتغاليين، ولهذا انتهز الإمام (سيف ابن سلطان الثاني) هذه الفرصة فقام بتعيين (محمد بن سعيد المعمري) والياً عليها الذي نجح أيضاً في تجديد تبعية باقي مدن الساحل لعمان مثل (زنجبار وبتة وبمبا) (١٢٩). وغيرها(١٣٠).

خامساً: تصفية الوجود البرتغالي وأثره على حركة انتشار الإسلام وتركيز دعائمه في ساحل شرق إفريقية

---

(١٢٧) يبدو أن هذه السفن العمانية الثلاث هي التي شاهدها (لويس دي ميلو سامبايو) عندما أبحر للمرة الثانية لإنقاذ (ممباسة) في أواخر عام ١٧٣٠م، وذلك عندما رأى هذه السفن راسية في ميناء (كيليندين) ورأى العلم العماني الأحمر يرفرف خفاقاً فوق القلعة، وعندما شاهد ذلك من مسافة آمنة قرر أن يواصل سيره إلى (موزمبيق) . انظر:

Bathurst, R. D., op. cit, p. 276.

(١٢٨) المزروعي، المصدر السابق، ورقة ٢١- ٢٢.

(١٢٩) باستثناء (ممباسة) فقد قام العمانيون عشية تصفية الوجود البرتغالي من ساحل شرق إفريقية عام ١١١٢هـ/ ١٧٠٠م بإعادة حكم بعض المدن في الساحل إلى الأسر التي كانت تحكمها قبل السيطرة البرتغالية مثل: النباهنة في (بتة) والحرث في (زنجبار) وغيرهم في (بمبا) و(كلوه) ، وفي تقديري أن هذه السياسة لم تكن موفقة إلى حد ما، حيث عادت تلك الأسر ومعها خلافاتها فيما بينها وتنافسها وتناحرها الأمر الذي انعكس بآثار سلبية على الساحل وبخاصة بعد سقوط دولة اليعاربة وقبل أن يرسخ البوسعيديون نفوذهم في تلك المناطق في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.

(١٣٠) السيار، المرجع السابق، ص١٠٤.

أدت السيطرة البرتغالية على ساحل شرق إفريقية التي امتدت قرابة قرنين من الزمان إلى تعطل حركة انتشار الإسلام وتركيز دعائمه في تلك المناطق، وعدم انتشاره إلى المناطق الداخلية إلا بشكل محدود، إضافة إلى توقف تدفق الهجرات من الجزيرة العربية إلى هناك باستثناء بعض المراكب التجارية المحدودة التي تتعرض في كثير من الأحيان إلى المصادرة والحرق من قبل البرتغاليين، ولكن عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م يعتبر نقطة تحول في تاريخ الإسلام في ساحل شرق إفريقية، وذلك عندما استطاعت السلطة العمانية الراسخة في ذلك الوقت أن تهيئ الأساس المناسب لأرضية صالحة لانتشار الإسلام وتركيز دعائمه.

لقد بسط العمانيون سلطتهم على القسم الشمالي من الساحل بأكمله والواقع بين خطي عرض (١١,٥) شمالاً و(١٠) جنوباً، وقاموا بتعيين ولاة المدن المهمة فيه، ولا شك أن تعيين الإمام والٍ على (ممباسة) جاء بمثابة أول أساس رسمي لظهور السلطة العمانية في ساحل شرق إفريقية بعد طرد البرتغاليين منها، ولكن أحداث المحيط الهندي والخليج العربي قد حالت دون حضور قوي لسلطة الإمامة هناك، ففي الوقت الذي استمر تعيين ولاة (ممباسة) من عمان اكتفى الإمام بالسيادة الاسمية على المدن الأخرى.

إن أكثر ما ميز هذه الفترة هو تدفق الهجرات العربية والإسلامية إلى هناك ونشاط الحركة التجارية بين المنطقتين، ولعل أهم الهجرات التي حدثت في أعقاب طرد البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية، التي كان لها أثر كبير، هي هجرة العمانيين والحضارمة، فالعمانيون بدأوا بالتردد على الساحل والإقامة فيه منذ بداية تجريد الحملات العمانية إلى هناك أي ابتداءً من عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م إضافة إلى من جاء منهم في ركاب تلك الحملات وفضلوا البقاء، ولكن الاتصال والهجرة الفعلية لهم بدأت منذ عام ١١١٢هـ/ ١٧٠٠م عندما تم بسط السلطة العمانية الاسمية على القسم الشمالي من الساحل، وقد تركز العمانيون في (ممباسة) وفي (زنجبار) رغم تفرقهم في المدن ولكنهم يكثرون في هاتين المدينتين[١٣١]،

(١٣١) Oliver, R., History of East Africa, vol. 2, (London, 1962) p. 143-45.

وتعتبر هذه الهجرات بداية عهد جديد من الاتصال الحضاري بين الخليج العربي وساحل شرق إفريقية، وبدأ الساحل باستقبال هذه الدماء الجديدة التي من المؤكد أنها تركت بصماتها على تلك المناطق.

ويجدر القول بأن تلك الهجرات الجديدة التي أدت إلى تجديد الدماء العربية والإسلامية في ساحل شرق إفريقية، جاءت أثراً مباشراً للجهاد العماني ضد البرتغاليين، حيث أسهمت في تهيئة الأساس المناسب لإقامة حكم عربي إسلامي في تلك المناطق، وبداية مرحلة جديدة من مراحل انتشار الإسلام في شرق إفريقية، وذلك عندما بدأ ركاب الدعاة بالتغلغل إلى وسط القارة ومنطقة البحيرات.

لذا فقد نشطت تجارة القوافل، وأصبحت تصل إلى عمق القارة الإفريقية، ولاشك أن العرب هم الرواد في التغلغل إلى تلك المناطق، حيث استقر كثير منهم في الداخل مؤسسين بذلك المراكز التجارية، والمحطات التي يعتمدون عليها في تنقلاتهم في ظروف مناخية شاقة، حيث وصلوا إلى الكونغو وأوغندا، وأصبحت المراكز التجارية التي أسست على طول طرق القوافل(١٣٢) النواة لقيام مجتمعات إسلامية في الداخل(١٣٣).

وفي هذا الصدد يقول (بيرس Pearce): "لقد كان الاستيطان العربي الإسلامى قبل تلك الفترة مرتكزاً في الساحل، ولكن العرب الذين جاءوا بعد طرد البرتغاليين كانوا رواداً في استثمار واستغلال القارة السوداء، وقد أثارت القصص التي عادوا بها عن البحيرات والجبال المغطاة بالثلوج... أثارت اهتمام العالم الغربي بإفريقية " (١٣٤).

وقد أسس المسلمون العديد من المراكز على طرق القوافل التي كانت مصدر إشعاع إسلامي في وسط القارة، فقد مكنت الإسلام من

---

(١٣٢) للمزيد من التفصيل عن مواقع الطرق والمحطات التجارية التي أسسها العرب والسواحليون المسلمون في داخل القارة الأفريقية التي تمتد من الساحل انظر الملحق (٣) .

(١٣٣) Soghayronn , I. E., The Omani and South Arabian Muslim Factor in East Africa, (Riyadh, 1984) , p. 24.

(١٣٤) op. cit, p. 120.

التغلغل في الأقاليم الأوغندية والكنغو(١٣٥)، وغيرها من المناطق التي امتد إليها نفوذ التجار المسلمين في داخل القارة، هذا التغلغل الذي لم يكن مصحوباً بغزو عسكري أو تنظيم سياسي، بل الإسلام مكن نفسه بنفسه من التغلغل الفطري المسالم.

وقد يكون من المفيد أن نؤكد على حقيقة مهمة وهي أن الجهاد العماني في القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الهجري قد أعطى ثماره، حيث مهد لقيام سلطنة زنجبار العمانية التي شملت معظم أجزاء ساحل شرق إفريقية، وأدى ذلك إلى أن العرب دخلوا في علاقات مع الشعوب الإفريقية، وسكنوا كثيراً من المقاطعات في داخل القارة، وذلك قبل أن يصل إليها الاستعمار الأوربي، والمؤكد أن كثيراً مما سجله العرب عن علاقاتهم برؤساء وشعوب المقاطعات الداخلية في إفريقية قد مسته يد الضياع، ولذلك فإننا في أشد ما نكون احتياجاً إلى دراسات مستفيضة عن دور العرب، وتأثيرهم الحضاري في أواسط القارة الإفريقية. وقد تفيد في ذلك الصدد كتابات وتقارير الرحالة والمستكشفين من رواد حركة التنصير، والكشف الجغرافي في إفريقية، خاصة، وأن معظم هؤلاء استفادوا فائدة كبيرة من المراكز التجارية والحضارية التي أوجدها العرب والسواحليون المسلمون على طول طرق القوافل، التي كانت بمثابة مراكز حضارية مهمة أسهمت في نقل المؤثرات العربية الإسلامية، كما أسهمت إسهاماً فاعلاً في تسليط الضوء على مجاهل القارة الإفريقية، حتى يمكننا أن نؤكد أن الحركة الاستكشافية التي شهدتها القارة الإفريقية في القرن الثالث عشر الهجري – التاسع عشر الميلادي لم تكن في حقيقة الأمر إلا تسجيلاً علمياً لمناطق وشعوب كان يعرفها العرب من قبل.

وإضافة إلى نشاط التجار الذين حملوا معهم الإسلام إلى داخل القارة كان هناك نشاط آخر قام به العلماء والدعاة، الذين تولوا حماية

---

(١٣٥) Stanley, H. M., Through the Dark Continent, vol. I, (London, 1878) , p. 543 ;

إبراهيم الزين صغيرون، انتشار الإسلام في أوغندا، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٢١.

الدستور الإسلامي في معظم المستويات، والإشراف على النظام الشرعي، وفي الوقت نفسه قاموا بتوجيه البنية التعليمية التي يقومون من خلالها بغرس المثل والقيم الإسلامية، وهذا يتم من خلال المدارس الإسلامية لهؤلاء العلماء المتمثلة بالمساجد أو في منازلهم الخاصة، كما قام الأدباء المسلمون بالإضافة إلى العلوم الشرعية بالاطلاع الواسع وابتكار الأدب الخاص بهم(١٣٦).

لقد عمل العديد من هؤلاء العلماء بالتجارة، الأمر الذي أتاح لهم فرصة القيام بالدعوة إلى الإسلام إلى جانب عملهم الأساسي، وقد مكنهم هذا العمل من الاتصال بالأجناس المختلفة في شرق إفريقية، سواء من الأفارقة أو من غيرهم، مثل بعض الطوائف الهندية التي تعمل بالتجارة، وإلى جانب الدعوة كان هؤلاء العلماء يقومون بإرشاد العامة وتبصيرهم بأمور دينهم من خلال المحاضرات والدروس التي يلقونها على عامة الناس وبخاصة في شهر رمضان أو في موسم الحج، لقد كان دورهم في التوعية الإسلامية كبيراً ومؤثراً(١٣٧).

لذا نخلص إلى القول إن الجهاد العماني الذي تمخض عنه طرد البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية قد فتح آفاقاً جديدة من العلاقة بين ساحل شرق إفريقية والجزيرة العربية، وهيأ المناخ الصالح لأن يقوم الإسلام بدوره الحضاري في المجتمعات الإفريقية الحديثة والمعاصرة، كما أبرز الدور الرائد للجزيرة العربية وعلاقتها بشرق إفريقية وهي علاقة وثيقة ومتينة ومتصلة، وأيضاً أبرز قنوات الاتصال وبخاصة في المجالين الثقافي والفكري، بل أصبح ساحل شرق إفريقية مسرحاً حياً للنشاط العربي الإسلامي، إلى جانب النشاط التجاري الذي جذب العديد من الشعوب الإفريقية والعالمية.

---

(١٣٦) سبنسر ترمنجهام، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ترجمة محمد عاطف النوري، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، القاهرة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص١٦١.

(١٣٧) Martin, B. G., Notes on Some members of the Learned classes of Zanzibar and East Africa, J.A.H, vol. 11, (1971) , p. 544.

الخاتمة

واستناداً إلى محتويات هذا البحث التي اعتمدت فيه على وثائق ومخطوطات ومصادر أولية مهمة، فإنني أوجز النتائج على النحو التالي:

• لقد برهنت الدراسة على أن العوامل الدينية والاقتصادية كانت أهم دوافع البرتغاليين للقيام بحركة الكشوف الجغرافية البرتغالية، ورغم أن أكثر الباحثين يغلّبون الدافع الاقتصادي إلا أنه بعد التقصي والبحث اتضح زيادة الدافع الديني ودور البابوية في ذلك، التي كانت قد خرجت مدحورة في الحروب الصليبية، وذهلت بالتقدم العثماني في أوربا وسقوط (القسطنطينية)، ولذا فإن البابا تكفّل بالدعم المالي والمعنوي للبرتغاليين مستغلاً بذلك عزمهم على مطاردة المسلمين بعد سقوط الوجود الإسلامي في أسبانيا، وقد انعكس ذلك على أساليب البرتغاليين ضد المسلمين في الشرق التي اتسمت بالقسوة والعنف.

• إذن فإن العامل الديني شكل أثراً فعالاً في حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية، حيث إن القضاء على الوجود الإسلامي في الشرق والمحيط الهندي، كان غاية يطمح البرتغاليون إلى تحقيقها وتباركها بابوية روما، وليس كما قالت بعض المراجع الأوربية بأن حركة البرتغاليين هذه كانت علمية بحتة ذات مضامين إنسانية.

• أما الدوافع الاقتصادية فترتبط ارتباطاً وثيقاً مع الدوافع الدينية، فقد سعوا إلى الحصول على ثروات الشرق من منابعها، والقضاء على وساطة المسلمين في تلك التجارة، ومن أجل ذلك عملوا على تقوية مراكزهم التجارية في الشرق، ومنعوا سفن المسلمين من مزاولة نشاطها التجاري، وكشفوا من خلال مواقفهم تلك أغراضهم الاقتصادية اللاإنسانية من خلال أعمالهم العدوانية ضد أهالي المناطق التي وصلوا إليها، وعمليات السلب والنهب التي كان التجار المسلمون يتعرضون لها على أيديهم. ولذا يمكن القول إن العامل الديني شكل الإطار العام للسياسة البرتغالية في الشرق ويندرج تحته العامل الاقتصادي، أي إن العامل الديني شكل مرتكزاً أساسياً لانطلاق السياسة البرتغالية في الاتجاهات المختلفة ولتحقيق الأهداف المتنوعة، في وقت يبقى الدافع الاقتصادي عاملاً عريضاً وكبيراً لا يمكن تجاهله.

• لقد أوضحت الدراسة أن السيطرة على السواحل الإسلامية في شرق إفريقية والخليج العربي والمحيط الهندي تتطلب قوة بحرية كبيرة بسبب الطبيعة البحرية لتلك المناطق، ولذلك نجح البرتغاليون في تحقيق سيطرتهم على تلك المناطق استناداً إلى تفوقهم البحري الذي واكبه هشاشة البنية السياسية الإسلامية والعربية، وعدم وقوفها جبهة واحدة ضد البرتغاليين، في الوقت الذي عجزت فيه القوى غير البحرية أن تحقق لها سيادة فعلية، ونعني بذلك الدولة العثمانية التي افتقرت إلى قواعد بحرية في بحار الشرق، رغم أن مركزها الديني كان يتيح لها قدراً كبيراً من النجاح، ولكن السبب – في تقديري – يعزى إلى تأخر إنزال الأساطيل العثمانية في البحار الشرقية، حتى تمكن البرتغاليون من تركيز وجودهم هناك كما أن تأخر وصول الأساطيل العثمانية كان بسبب عدم وجود إمكانيات بحرية في الجناح الشرقي في الدولة، فحملاتهم البحرية تقطع طريقاً طويلاً من البحر الأحمر حيث القاعدة البحرية التي ورثوها من المماليك في السويس حتى تصل إلى بحر العرب والمحيط الهندي والخليج العربي، بالإضافة إلى التحالف البرتغالي الإيراني ضد العثمانيين الذي عرقل وصول الإمدادات العثمانية للمنطقة إضافة إلى عدم كفاءة بعض القيادات العثمانية التي تصدت للبرتغاليين في المحيط الهندي.

• لقد كان للجهاد الذي قاده الإمام (ناصر بن مرشد) ضد البرتغاليين في عمان صدى واسع في ساحل شرق إفريقية، حيث ثار الأهالي هناك على البرتغاليين، وألحقوا أضراراً بالمراكز البرتغالية، مما يثبت قوة الروابط الأخوية الإسلامية بين تلك المناطق وعمان والخليج العربي، ولكن البرتغاليين استطاعوا قمع تلك الثورات بوحشية وقسوة.

• قام الإمام (سلطان بن سيف الأول) بعد تحرير عمان بسنتين، أي في عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م بإرسال حملة بحرية لنجدة المسلمين في ساحل شرق إفريقية استطاعت أن تهاجم المواقع البرتغالية هناك وأن تمد يد المساعدة والعون إلى مسلمي الساحل، كما أدت إلى قيام ثورة ضد البرتغاليين وقتل العديد منهم، ومهاجمة مراكزهم وحامياتهم العسكرية. ورغم تواضع هذه الحملة وعدم تحقيقها نتائج حاسمة، إلا أنها برهنت للبرتغاليين أن أهالي ساحل شرق إفريقية لن يكونوا وحدهم بعد اليوم،

كما أعطت سكان الساحل اطمئناناً بأن ذلك مقدمة لمساعدات كبيرة، وهذا يعكس بجلاء الروابط الأخوية والحضارية بين ساحل شرق إفريقية وعمان.

• أوضحت الدراسة أن وجود القيادة المسلمة والمخلصة في البلدان الإسلامية كفيلة بتوحيد الكلمة في المجتمع الإسلامي، أو في البلد الإسلامي والحفاظ عليه من الأعداء وقيادته إلى مراتب عليا من المجد والازدهار، وقد تجلى ذلك في ما قام به الإمام (سلطان بن سيف الأول) عندما وجه الشعب العماني ومعه أبناء الخليج العربي لجهاد البرتغاليين سواء في ساحل شرق إفريقية أو في سواحل المحيط الهندي المختلفة، فقد جرد عدة حملات بحرية على المراكز والسفن البرتغالية في ساحل شرق إفريقية والخليج العربي وساحل الهند الغربي، الأمر الذي أضعف الوجود البرتغالي وحجّم خطره وساعد المسلمين ودافع عنهم في ساحل شرق إفريقية.

• أثبتت الدراسة أن ساحل شرق إفريقية ظل معتمداً في أمنه وحمايته على العمانيين منذ تحرير (مسقط) ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م، ويتضح ذلك من تأثره بالنزاع على السلطة في عمان بين الأخوين (بلعرب بن سلطان) و(سيف بن سلطان الأول)، ذلك النزاع الذي أدى إلى انحسار الاهتمام العماني بشؤون الساحل، وسحب القوة العمانية التي كانت ترابط هناك، الأمر الذي أدى بالبرتغاليين إلى استعادة بعض المدن التي حررها العمانيون، والقيام بعملية تأديب وقمع لأهالي الساحل.

• إن استقرار الأوضاع في عمان والخليج في تلك الفترة ينعكس إيجابياً على ساحل شرق إفريقية، فهذا الإمام (سيف بن سلطان الأول)، هب مسرعاً إلى نجدة المسلمين هناك، وذلك عندما أرسل أسطولاً بحرياً كبيراً استطاع محاصرة (ممباسة) منذ أوائل عام ١١٠٨هـ/ ١٦٩٦م حتى سقطت عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م، وقام بعدها بعملية تطهير واسعة، ولم يأت عام ١١١٢هـ/ ١٧٠٠م إلا وقد تم تحرير كامل الجزء الشمالي من الساحل من الاستعمار البرتغالي، ولم يبق للبرتغاليين من وجود هناك إلا في (موزمبيق)، وبذا يكون الإمام (سيف) قد توج جهود الأئمة العمانيين بهذا النصر المبين.

• أدى طرد البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية إلى معاودة الاتصالات الحضارية والتجارية بين الساحل وبين الجزيرة العربية والخليج العربي، ووضع الأساس لقيام حكم عربي إسلامي هناك، امتد لفترة طويلة، وهيأ الفرصة لعملية انتشار الإسلام واتساع نطاقه ليشمل أواسط القارة الإفريقية، حيث تغلغل التجار والدعاة العرب والسواحليون المسلمون إلى مجاهل القارة الإفريقية، وقاموا بإنشاء المراكز والمحطات التجارية في أعماق القارة، التي أصبحت مراكز إشعاع حضاري إسلامي.

• أوضحت الدراسة أن الرغبة في الجهاد هي المحرك الرئيس للعمانيين ضد البرتغاليين خلافاً لما ذكرته بعض المصادر الأجنبية، ومن نقل عنها من أن القرصنة هي الدافع الأساس لعمليات العمانيين البحرية، لأنه لا أحد يستطيع أن ينكر أنه كان بإمكان العمانيين وأبناء الخليج الآخرين الاتجار مع المناطق المختلفة دون حرب، وهي مسألة ميسرة، ولأن المعارك البحرية التي جرت بين العمانيين والبرتغاليين أضرت أكثر من مرة بالتجارة العمانية، وقد حاول البرتغاليون خطب ود العمانيين ومصالحتهم، وهذا يوفر مناخاً صالحاً لانتعاش التجارة العمانية لو كانت التجارة هي الهم الوحيد عند العمانيين، ولكن الثابت أن الجهاد فقط هو الذي دفع العمانيين إلى ذلك.

• أوضحت الدراسة أن الجهاد العماني الذي أدى إلى طرد البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية قد فتح آفاقاً جديدة من العلاقة بين تلك المناطق و الجزيرة العربية، وهيأ المناخ الصالح لأن يقوم الإسلام بدوره الحضاري في المجتمعات الإفريقية الحديثة والمعاصرة، وأصبح ساحل شرق إفريقية مسرحاً حياً لنشاط عربي إسلامي، لعب دوراً بارزاً في تاريخ إفريقية الحديث والمعاصر.

الملاحق

١- وثيقة مؤرخه في ١٠٦٤هـ /٢٨ يناير ١٦٥٣م تبين مدى الأضرار التي لحقت بالمراكز البرتغالية في ساحل شرق إفريقية من

جراء الحملة العمانية الأولى عام ١٦٠٣هـ /١٦٥٢م والأثر الذي تركته تلك الحملة على سكان الساحل وإذكائها روح المقاومة والجهاد لديهم ضد البرتغاليين، كما تبين هذه الوثيقة المواجهات العسكرية التي حدثت بين العمانيين والبرتغاليين في الخليج (١٣٨)

٢- خريطة توضح الطرق البحرية التي سيطر عليها البرتغاليون والحصون البرتغالية الرئيسة.

٣- خريطة توضح الطرق والمراكز التجارية الرئيسة التي أسسها المسلمون العرب والسواحليون التي تمتد من ساحل شرق إفريقية إلى وسط القارة الإفريقية وذلك خلال الفترة التي أعقبت تحرير ساحل شرق إفريقية من السيطرة البرتغالية .

(١٣٨) (I.O.R) 1/3/141: 65, foi. 466.

INDIA OFFICE LIBRARY AND RECORDS Reference
Set IOR I/3/141
Copyright photographs reproduced photogr. permission of the Inc and Records

(15)

Books of the Marrow

Documents transcribed

1

Book 60

Fol 331

Letter from the Viceroy of India, to the King.

1650. December 10
Copy.

Sendra = After despatching the Galleon "Santo Antonio" from Goa to Cabo towns for that Kingdom, the same to hand on the 15th of last ... a letter from the Patriarch Don Francisco Gonçalo da Silva wherein he gave me an account ... arrival at that port ... a ... of his having on board 500 persons ... Mason &c. which persons ... been sent on board by the Capta General Francisco de Tavora de ... by reason of the Arabian enclosi ... the River by night, and ... harbour of the same with the ... of many men, this entry not ... meet with any defence nor ever ... vigilance although labouring ... a ... by the said Arabian, ... the rest only lasting place in the ... days owing to which the Viceroy ... retreated to the Fort on the height ... whilst there remained at the Fac ... from supplies, gun powder, mu ... tions and arms, and along with ... what subsequently followed, we ... might both the one and the ...

INDIA OFFICE LIBRARY AND RECORDS
Reference
IOR I/3/141
Copyright photograph... not reproduced photographically permission of the India Office and Records

(16)

2

Wrongfully could have been helpful
Because it was in the Presumption that
the Good Stores should be Kept both
in the Fort and in the Fortifs, and
so Great was the Hurry and Fear that
no considerable Quantity was saved.

Upon such a News so different
from what he had expected the
Governor Strongfold was well-grounded
Satisfied Surrender a Parley and
it was voted that Don Gomes de
Abreu should go as Plenipotentiary
and Treasurer & Admiral him to
the Fort and in a few days time
two Galleys were made ready and
200 Men with Money and Good
Supplies Corn Powder and Ammunition
Notwithstanding that a very great
Darkness Rainy Weather had been embarked
in private Balayoo which had been
sent to Barcelor to Load and on
this Relief being dispatched, there
was sent from the North some
Balayoo for the Load and Men and
Rhode Francisco Monis to declare
in His manner from Goa that
equipped & the Fleet of the Fort
under the command of the Captain
in Chief of Diu or some Person
of Reputation.

This relief would have amply
sufficed, not only for the conservation
of the Fortifs and Subsistence

INDIA OFFICE LIBRARY AND RECORDS Reference Ser. IOR I/3/141
Copyright photograph – not to be reproduced photographically without permission of the India Office Library and Records

(17)

3

but for recreating the Hyes, but this was thwarted, however, because the Fortress and all else of that stamp were found to have surrendered. For on the 29th, and the Fort of the 16th of January, with small cost and many lives of the Arabian at a time when the Stronghold was best provided and garrisoned, more so than at any other occasion, and so many were the causes that concurred to this end, and were worked by those in whose charge was it done, for the same effect, that it can only be credited that the men had endeavoured at any sacrifice to deliver it up, the arab Moors who were in the service of your Govr. to act, with very little loyalty and bravery ..... who thanks as vassals of Com. Pharaoh have so often experienced their lives, and this is so greatly the case that the Arabian himself pack mule boys that he commanded to shield his himself Master of the situation, [illegible] as the Object of the war was nothing further than that peace should be restored, and in truth this event was one of sorrow to some of the Princes, with the result that one of them came here to plead on the part of many others that

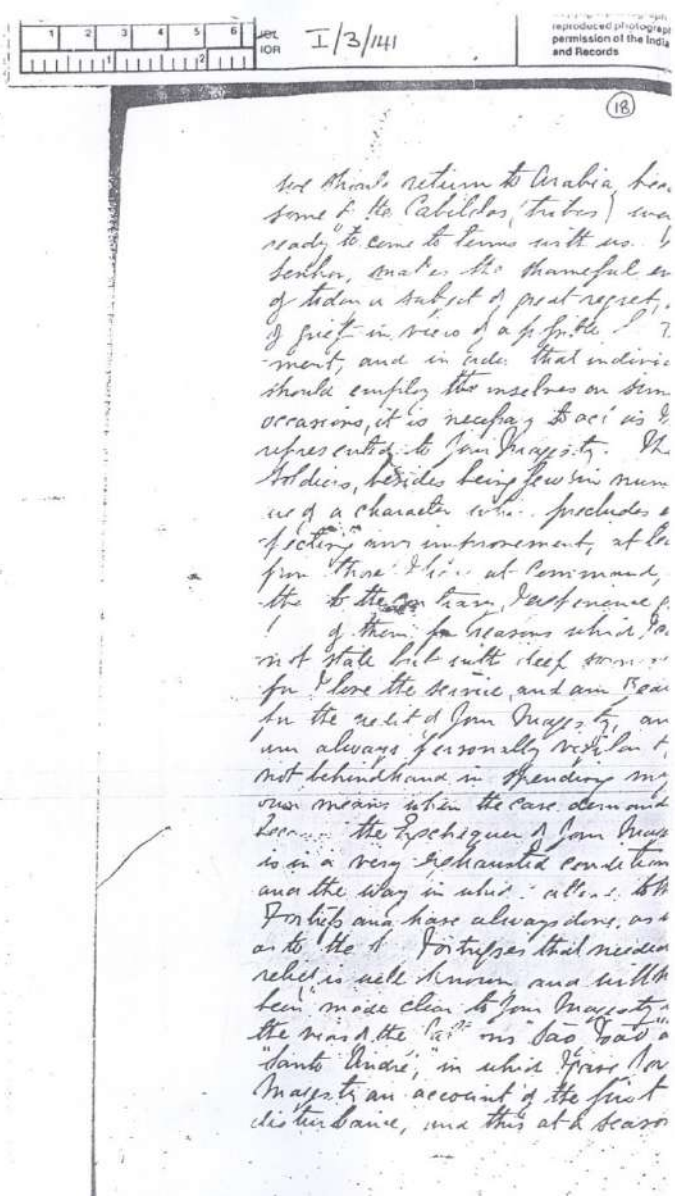
IOR I/3/1141
reproduced photograph permission of the India and Records

reproduced photographic
permission of the India Off
and Records

IOR I/3/141.

(A)

when the State had been left with
reinforcement of Ships for three ye
but for my own, this care will not re
on bad event.

An enquiry was instituted on th
part, punishment meted to those
most partly deserved it; for in truth
those who deserted that Fortress, a
soon after lost their lives, and even th
dead, had they lived, would have sha
the same fate. Don Francisco de Sa
Governor of that Place died a few day
to surrender unto the Arabians. Th

Dellgado Paid Stain of the Portuguese at
ended his life soon after; Dom Paldes
de Quadros in whose Ships was th
Fleet came flying with it to Din w
out attempting to relieve Muscate a

as he could well have done, an
which would have prevented Loring
by which event I also ordered an en
be made by Competent persons, and
reason why it was not apprehended.
Francisco Moreira da Silva. Th
Enquiry together with that on the
loss of Muscate I forward to Your
Majesty with another Letter of th
same tenor, as well as a duplicate
copy of a Letter which I write to
Your Majesty in Cypher and that
I sent by the English Ships whic

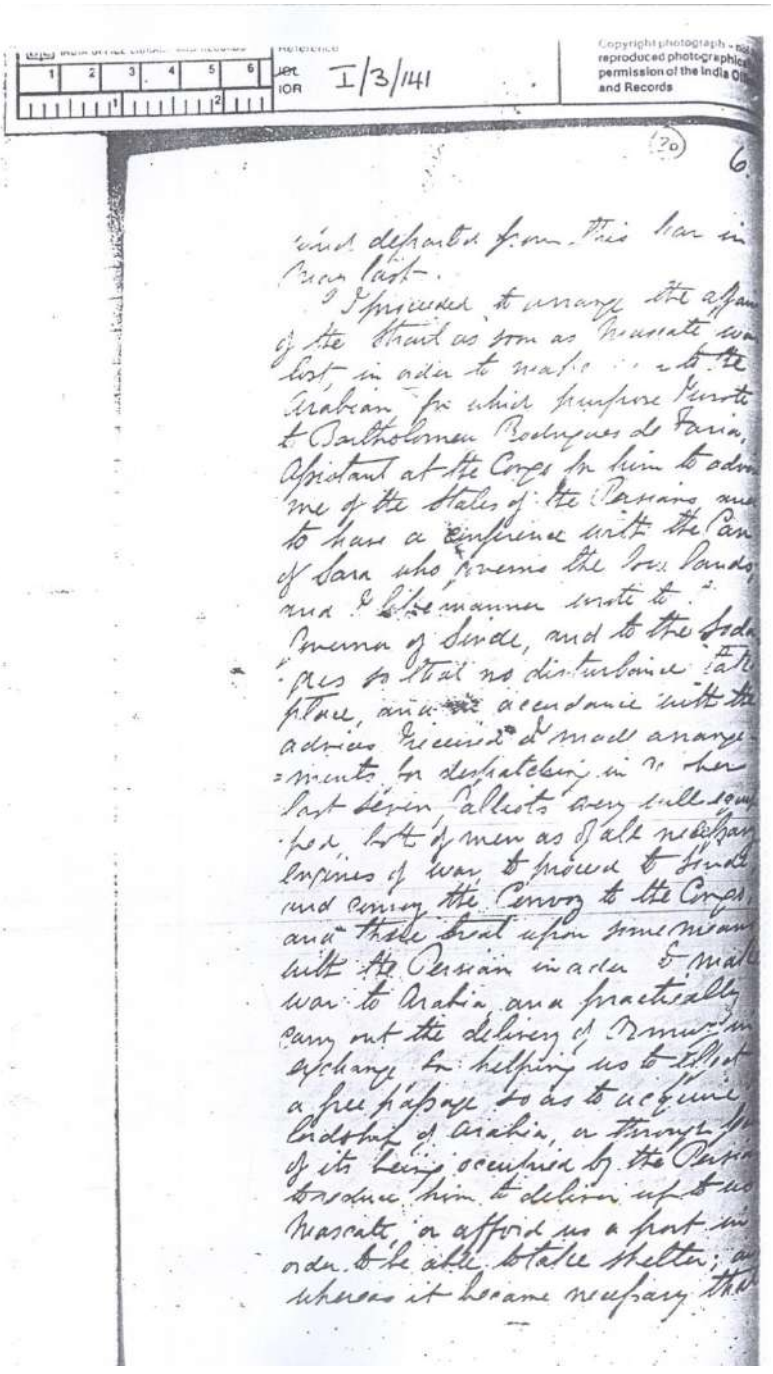
IOR I/3/141
Copyright photograph - not reproduced photographically permission of the India Office and Records

(120) 6.

vind departed from this bar in
Nov last.

I proceeded to arrange the affa
of the Coast as soon as Muscate wa
lost, in order to make ... into the
Arabian for which purpose Senhr
& Bartholomew Rodrigues de Faria,
Assistant at the Corps he him to advi
me of the States of the Persians and
to have a Conference with the Can
of Sara who governs the Sea Coast,
and I the manner wrote to
Governor of Sinde, and to the Gove
nors to that no disturbance take
place, and in accordance with the
advices received I made arrange
ments for despatching in the then
last Season, Allcots very full com
plet Lott of men as I ale necessary
Empires of war & provend to Sinde
and convoy the Convoy to the Coast,
and there treat upon some means
with the Persian in order to make
war to Arabia and practically
carry out the delivery of Muscat in
exchange for helping us to obtain
a free passage to us to Ormus
Gulph of Arabia, or through fear
of its being occupied by the Persia
to induce him to deliver up to us
Muscate, or afford us a port in
order to be able to take shelter; as
whereas it became necessary that

IOR I/3/141 reproduced photograp permission of the India and Records

some person of Authority should
visit at the Cape, I mention al
Duarte da Costa Homen with
title of Administrator of the Exch
-quer of His Majesty in Persia.
Sendle who took a Receipt for
instructions as to what he should
carry out.

The Iman of Arabia demands
a Cayen pronis and a time one to
Prem the Fleet which seems to
that Kingdom, but which for the
I have not sent any one, both be-
-cause the strength is inferior due
to no more than having arm-
that Kingdom, as because I am no
yet decided who would be the mos
proper individual, as there are fe
few who are competent, as I have
signified to Your Majesty. Neve
-the less I am resolved upon pur-
-suiting the seven Articles, and
add to the number as many mo
as time and the circumstances of this
state should permit, and should
there be occasion to do so by having
an adequate Fleet. I will go me
to the Coast in person, and I would
even consider it preferable to end
my life there in it than apprehen
any thing further from the indisposi
Your Majesty has in this State.

May God preserve the Patriotic

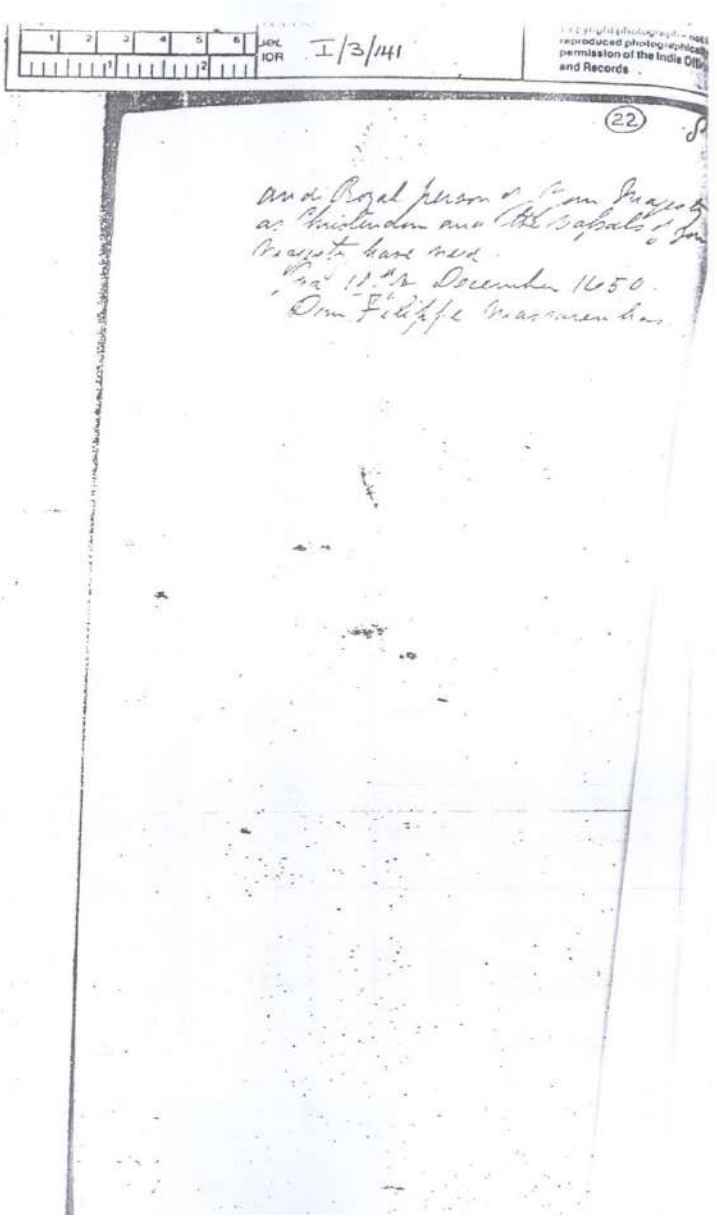
IOR I/3/141
reproduced photographically
permission of the India Office
and Records
(22)

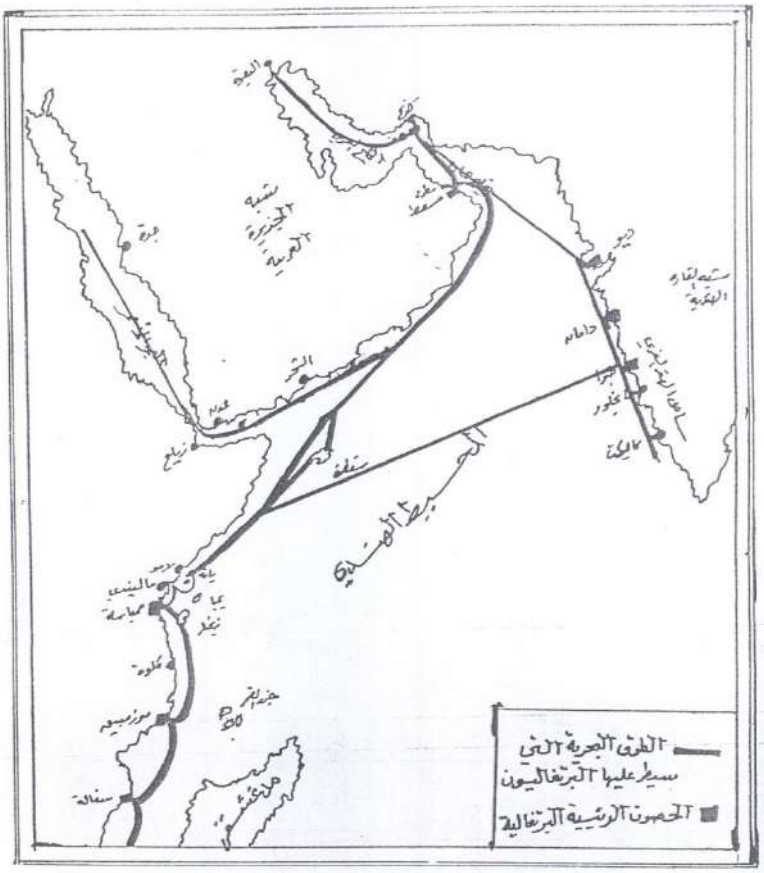

المصدر :

مديحة أحمد درويش ، سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ص ٢٤٩ .

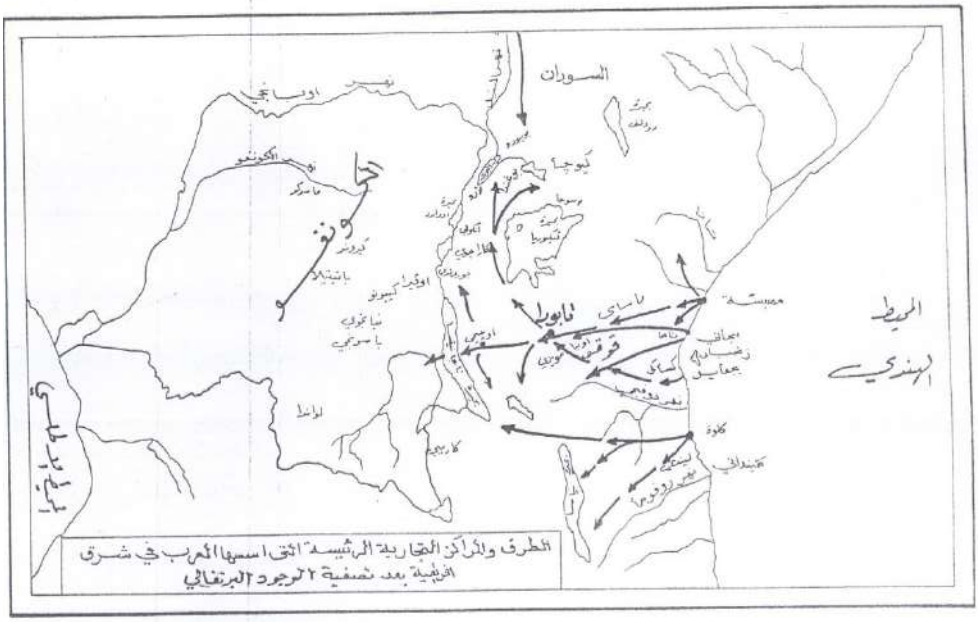

المصدر :

بتصرف عن : Lewis, I.m., Edit Islam in Tropical Arfica, (Oxford, 1960),P.25.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق

– وثائق غير منشورة من سجلات مكتب الهند (I.O.R):

India Office Portuguese Records:

أ) وثائق برتغالية تمت ترجمتها إلى الإنجليزية:

1. I/3/139, Documentos. 48, fol, 290, Letter Viceroy to the king 1 February 1644.
2. I/3/141, Documentos. 56, fol, 466, p. 5, Letter Viceroy to the king 28 January 1653.
3..I/3/140, Documentos. 56, fol, 491, p. 6 , Letter viceroy to the king 4 March 1653.
4. I/3/141, Documentos. 156, fol, 481, p. 7 , Letter king to the viceroy 2 January 1978.
5. 1/3/141, Documentos , 439 fol. 271, Letter viceroy to the king , 16 May 1698.

ب) وثائق إنجليزية عبارة عن رسائل من الهند (الرسائل الأصلية):

(Letter From India (Original Correspondence)

1. E/3/19, 1962. Letter Gombroon to surat 16 Novambr 1645.

ج) وثائق إنجليزية عبارة عن تقارير سجلات الوكالات Factory Records:

1. G/36/105 (19045), pp. 112-114-118 , Letters Gombroon to surat 27 March 1669.
2. G/36/105(19045), p. 176, Letter Gombroon to surat 26 November 1669.

د) وثائق جمعية الكنيسة التنصيرية بلندن:

1. C.M.S.A rchives, G3A7/0. Tucker to Mr. Boylis, December 30, 1904.

– وثائق منشورة في شكل ملخصات وكتب:

١ – أحمد بوشرب: مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابه تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد العاشر، السنة الخامسة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الأولى ١٤٠٧هـ/يناير ١٩٨٧م.

٢- لوريمر.ج.ج: دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١، ترجمة مكتب الترجمة ديوان حاكم دولة قطر، الدوحة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

٣- Achronicle of The Carmelites, in Persia and the Papal Mission of the XVIIth and XVIIIth Canturies,2vols, (London, 1939).

ثانياً: المصادر المخطوطة

١ – المزروعي الأمين بن علي:
مخطوط تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، نسخة مصورة في قسم التصوير العلمي والميكروفلم بالمكتبة المركزية جامعة أم القرى بمكة المكرمة برقم ٢٩٠٤، مأخوذ عن الأصل الموجود لدى ورثة السيد علي جعفر الوهط السقاف العلوي الحضرمي بمكة المكرمة.

ثالثاً: المصادر المطبوعة

١ – ابن الحسين يحيى بن القاسم:
غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
٢ – ابن الديبع أبي الضياء عبد الرحمن علي:
قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد علي الأكوع، ج٢، القاهرة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
٣ – ابن رزيق حميد بن محمد:
الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبدالمنعم عامر ومحمد مرسي، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
٤ – الأزكوري سرحان بن سعيد:
تاريخ عمان المقتبس من كشف الغمة الجامعة لأخبار الأمة، تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسي، وزارة التراث والثقافة بعمان، ط٢، مسقط، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥ – جيان:
وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ترجمة يوسف كمال، ط١، القاهرة، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م.
٦ – السالمي نور الدين عبد الله بن حميد:
تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، صححه وعلق عليه أبو إسحاق إبراهيم طفيش الجزائري الميزابي، ج١-٢، مطبعة الشباب، ط٢، القاهرة، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.

٧ – المعولي أبي سليمان محمد بن عامر:
قصص وأخبار جرت في عمان، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، بدون تاريخ.
٨ – مؤلف مجهول:
السلوة في أخبار كلوة، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٩ – النهروالي قطب الدين محمد بن أحمد:
البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طبعه حمد الجاسر، دار اليمامة، ط١، الرياض، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

رابعاً: المراجع العربية

- إبراهيم شحاتة حسن:
وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب، دار الثقافة، ط١، الدر البيضاء، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- أحمد بو شرب:
دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور ١٤٨١ – ١٥٤١هـ، دار الثقافة، ط١، الدار البيضاء، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- أحمد الساداتي:
تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، ج١، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت.
- أنور عبد العليم:
ابن ماجد الملاح، سلسلة أعلام العرب، العدد ٦٣، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- جمال زكريا قاسم:
الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- راشد البراوي:
الرق الحديث في إفريقية البرتغالية: ط١، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.
- سالم حمود شامس السيابي:

عمان عبر التاريخ، أربعة أجزاء، وزارة التراث والثقافة بعمان، ط٢، مسقط، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- السيد رجب حراز:
عمان عبر التاريخ، أربعة أجزاء، وزارة التراث والثقافة بعمان، ط٢، مسقط، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
إفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- سعيد علي المغيري:
جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث والثقافة بعمان، ط٢، مسقط، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم:
زنجبار، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، القاهرة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.
- عائشة علي السيار:
دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقية ١٦٢٤ – ١٧٤١م، دار القدس، ط١، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- عبد المجيد عابدين:
بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م.
- غسان علي الرمال:
صراح المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ط١، جدة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
- محمد عبد اللطيف البحراوي:
فتح العثمانيين عدن، دار التراث، ط١، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- مديحه أحمد درويش:
سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار الشروق، ط١، جده، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢هـ
- نعيم زكي فهمي:

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، القاهرة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

- وليد محمد جرادات:

الأهمية الإستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة، ط١، الدوحة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- يوسف بن علي الثقفي:

دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور، ط١، مكة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٧٩م.

خامساً: المصادر والمراجع الأجنبية المعربة

- أحمد حمود المعمري:

عمان وشرق إفريقية، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- أرنولد ولسون:

تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة بعمان، ط٢، مسقط، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- بازل افدسن:

إفريقية تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال أحمد، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

- بانيكار. ك. م:

آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالرزاق جاويد، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

- دونالد وايدنر:

تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ترجمة علي فخري وشوقي الجمل، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

- رودلف سعيد رويتي:

سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي ١٧٩١ – ١٨٥٦م، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة البصرة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- رولاند أوليفر – جون فيج:
موجز تاريخ إفريقية، ترجمة دولت أحمد صادق، بيروت، بدون تاريخ.
- سبنسر ترمنجهام:
الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ترجمة محمد عاطف النوري، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، القاهرة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- غي دي بوشير:
تشريح جثة الاستعمار، ترجمة ادورد الخراط، دار الآداب، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- فليبس وندال:
تاريخ عمان، وزارة التراث والثقافة بعمان، ط٢، مسقط، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- مايلز. س.ب:
الخليج بلدانه وقبائله، ترجمه محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- مبارك بن علي الهنائي:
العثمانيون وقلعة ممباسة، ترجمة عبد المنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، سلسلة تراثنا، العدد التاسع، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

سادساً: الرسائل الجامعية والبحوث

- إبراهيم الزين صغيرون:
انتشار الإسلام في أوغندا، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- إبراهيم العدوي:
التجار العرب في أوغندا، مجلة نهضة إفريقية، العدد التاسع عشر، القاهرة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.
- أحمد شلبي:

تـاريخ عمـان ونشـاطها الـداخلي مـن مطلـع الإسـلام حتـى الآن، حصـاد نـدوة الدراسـات العمانيـة، ج٢، وزارة التـراث والثقافـة بعمـان، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- التاجر علي:
الربان أحمد بن ماجد، دفاع وتقييم، مجلة العرب، ج٣ و٤، السنة الخامسة، رمضان وشوال ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
- جمال زكريا قاسم:
الاستعمار البرتغالي وأثره على العلاقات العربية الإفريقية، بحث في كتاب (العلاقات العربية – الإفريقية – دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- حسام خادم:
ابن ماجد ودوره في اكتشاف طريق الهند البحري ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الأولى ١٤٠٨هـ/ يناير ١٩٨٨م.
- السر سيد أحمد العراقي:
الإسلام والصليبيون في ساحل شرق إفريقية، مجلة الوثيقة، العدد الثالث عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، ذو القعدة ١٤٠٨هـ/ يوليو ١٩٨٨م.
- شوقي عطا الله الجمل:
الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي والتحرير الإفريقي من الاستعمار البرتغالي، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج١، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.
- صلاح العقاد:
دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي – دراسة مقارنة – حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج٤، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- عامر الحجري:

تاريخ العلاقات العمانية الإفريقية بداية التواجد العماني في شرق إفريقية، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ج٢، الدوحة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٦٧م.

- عبد الرزاق عثمان:

البرتغاليون في شرق إفريقية، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الثانية ١٤٠٩هـ/ يناير ١٩٨٩م.

- عبدالوهاب القيسي:

المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج١، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.

- عدنان الزبيدي:

عمان وسياسة نادر شاه، رسالة ماجستير غير منشورة، المكتبة المركزية، جامعة بغداد، رقم ٦٨٤/ب، بغداد، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- محمد علي الداود:

تاريخ العلاقات الهولندية في الخليج، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الثالث، ١٣٨٤هـ/ نوفمبر ١٩٦٤م.

- وزارة التراث القومي والثقافة بعمان:

عمان تاريخاً وعلماء، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

سابعاً: البحوث الأجنبية المعربة

- بكنجهام. س:

بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج٦، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- سلوت. ج.ب:

سطور من تاريخ البحرين والخليج اعتماداً على الوثائق الهولندية، مجلة الوثيقة، العدد الحادي عشر، السنة السادسة، ذو القعدة ١٤٠٧هـ/ يوليو ١٩٨٧م.

- كيركمان. جي:

التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج٥، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

ثامناً: المصادر والمراجع والبحوث الأجنبية

- Barbosa, D.,:
The Book of Durate Barbosa: An Account of the Countries bordering on the Indian ocean About the year 1518 A. D. Translated from the Portuguese text by MausalIengwrth Dames, 2 vols. The Haklaytsocity , (London, 1918).

- Bathurst, R. D.,:
The yarubi Dynasty of Oman, Submitted for the Degree of Doctor of philosophy , Linacre College, (Oxford, 1967).

- Boxcr, C.R.,:
Portuguese Congluest and Commerce in Southern Asia (London, 1985).
Fort jesus and the Portuguese in mombasa 1593- 1729 , (London, 1960).

- Coupland, R,:
East Africe and it in vaders (London, 1938).

- Denvers, F. C,:
The Portuguese in India,2vols, (London, 1894).

- Fryer, J.,:
New Account of East India and Persia being Nine years Travels 1672 – 1681, ed W. Crook, Hakluyt Society ,3 vols, (London, 1915).

- Granvill, F.,:
The Medival History of the Coast of Tanganiyka, (Oxford, 1962).
Select Documents the East African coast, (Oxford, 1962).

- Gray, J.,:
Early PortugeseMissionnries in East Africa , (London, 1960).

- Guillain, C.,:
Documents surl'histoire, Ieoiregeographie, et le commerce de I'Afriqueorientale, 3vols, (Paris, 1856).

- Lewis, I.M.,:
Edit Islam in Tropical rfica, (Oxford, 1960).

- Low, C.R., :
History of the Indian Navy 1613 – 1863 ,2 vol.s, (London, 1877).

- Marharat, M.,:
Fort Jesus Mombasa, (Neirobi, 1934).

- Martin, F. A.,:
Memoirs de FrencoisMertinFondateurdepondichery 1665- 1696, 3 vols, (Paris, 1931- 1934).

- Martin, B. G.,:
Notes on Some members of the Learned classes of Zanzibar, and East Africa, J.A.H, vol. 11, (1971).

- Oliver, R.,:
History of East Africa, 2 vols., (London, 1962).

- Owen, W. F.,:
Narrative of voyages to Explore the Shores of Africa, Arabia and Madagscar, 2vols, (London, 1833).

- Pearce, F , B ,:
Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa, (London, 1920).

- Sergeant, R,B.,:
The Portuguese of the South Arabian Coast, (Lodon, 1967).

- Soghayronn , I. E.,:
The Omani and South Arabian Muslim Factor in East Africa, (Riyadh, 1984).

- Sousa, F.,:
The Portuguese Asia or the History of the Discovery and Conquest of Inda by the Portuguese, transl, into English by Cap John Stevens,3 vols, (London, 1695 – 1894).

- Stanley, H. M.,:
Through the Dark Continent, vol. I, (London, 1878).

- Strandes, J.,:
The Portuguese Period in East Africa, transletd J.F. Wallwork, ed J.S. Kirkman, (Nairobi, 1961).

- Trimingham, S.,:
Islam in Ethiopia, (London, 1952).

- Warner, A.,:
A Swahili History of Pata, J. A. H, No. 14, (January 1914).

The Islamic resistance in its early stages against colonialism Portuguese (1034-1123(H)/1624-1730(AD))

Dr. Fatima M. AlForahi
Prefessorassistamt of modern history History Department
Facuity of Arabic language & social stuolies Qassim university

Abstract. In early tenth higri century, the sixteenth (AD) century, the African coasts witnessed the arrival of the pioneers of the European colonial powers in modern era. That was represented by the Portuguese invation to the eastern coast of Africa, which was considered as an extension to the European Crusades.

In this research 1 work on exhibiting the religious and the economic incentives of the Portuguese colonialism, as they were the basic factors invasion. The Portuguese concern about the east African coast is attributed to two main reasons, these are:(1) termination of Arab Islamic existence and dominating its trade in the area and (2) preparing this coast to be a supply station to the Portuguese ships in their way to and form India, that is to say, to serve as an outer base to provide security and protection to this significant navigation line.

Also 1 try to exhibit the role of jihad movement of the ommani Arabs which led to the expulsion of the Portuguese from the east African coast. This action, truly considered to be the turning point in the history of the Islam.

In this area and wich contributed too much in penetration of Islamic religion and its wide spred in the depth of Africa. moreover, this coast became an Islamic radiating center, which

Transfer the Islamic civilization all round the black continent.